



فهمى عبد

617  
61A

أبو زيد الخليلي

د. الأمام



6117  

---

31A

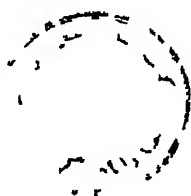


أَبُو زَيْدٍ الْهَمْدَانِي



محمد فرهمى عبد اللطيف

أبو زيد الهذلي



٤٧

اقرأ

دار المعارف للطباعة، القاهرة



أولاً ٤٧ - أكتوبر سنة ١٩٤٦



جميع الحقوق محفوظة

له. المطبعة - بصرى

## هذا الكتاب

لا يزال الأدب بجميع فنونه وألوانه يخلق فوق رؤوس الجماهير  
وينعالي على البيئات الشعبية ، ولا يزال أهل الأدب والعن  
يترفعون على مستوى العامة بما يصطنعون من الامتيازات والخصائص  
فى تفكيرهم وتعبيرهم ، وفيما يتناولون من شئون الحياة ومظاهر  
الكرون ورعات الناس وتصارييف الدنيا .

والحجة الوحيدة لأهل الأدب على هذا الترفع هى أن الفن سمو  
ورفعة ، فليس من عادته أن يجدر إلى السئات الشعبية وأن يجار بها  
فى ماذلها ، وإنما عاينه أن يسمو بهذه البيئات وأن يرتفع بها إلى  
أعلى ، فهدب عواطفهم ويعقل مشاعرهم ويملمهم بحسبون إسانيتهم  
على وصع أبيل وأكرم ، وهذه حجة لها وجهتها وقوتها والكمى  
لا آراما تدعو إلى كل هذه المالملة فى الكبرياء والتعظيم ، فاما  
مع (رومان رولان) فى دعونه « إلى إدخال الفن فى البيئات  
الشعبية ومجربده من امتيازاته وأمجاده وأوصاعه الرسمية التى

اصطعها أهل الفن اصطناعاً وأقاموها أسواراً شاهقة تفصل بينهم وبين عامة الناس وتميرهم في غدوهم ورواحهم كأنهم طبقة الكهان ، ولكنى لا أستطيع أن أقول أبدأ إن الفن - وأعلى الأدب خاصة - يجب أن يصير شعياً عاماً يتجاوب مع عواطف الجماهير ورغباتهم بأسلوبه وفكرته وما يهدف إليه من العايات .

ولقد عاش الأدب العربى آماداً طويلة وهو فى حمهته ربيب القصور وساحات الملوك ، فما كان يمشى بين الناس إلا ممهوراً باسم الخلفاء والولاة والحكام كأنه الدراهم والدينار ، ولكن فى الآونة الأخيرة رأينا الأدماء يتجهون إلى طبقات الشعب ويزلون إلى معترك الجماهير ويتلمسون فى هذه المحالى مادة لإنتاجهم وتصويرهم ، وهو اتجاه حميد من غير شك ، وإبها خطوة طيبة فى تقريب المسافة بين من يسموهم الخاصة وبين من يسموهم العامة ؛ ولكنى لا أستطيع على أى حال أن أسمى هذا اللون من الأدب أدباً شعياً يوجب بعواطف البهائم الشعبية ويتجاوب مع رغباتهم ميوهم ويؤثر فى تكوين شخصياتهم وتلوين نفسياتهم ، بل هو رن من الأدب لا يتصل بتلك البهائم إلا فى مادته ، ومع ذلك قد يكون فيه كثير من التلغيق المصطنع والكذب المخترع والصورة

التي لا تتأتى ولا تتحصل إلا في خيال مبتدعها .  
على أن هذه البيئات الشعبية لم تكن لتنتظر حتى يتنزل إليها  
ذلك الأدب الرفيع من عليائه ، فتجد فيه نفسها وتنهل منه  
ما يروى عواطفها ويرى شخصيتها ، ولكنها وجدت نفسها في أدبها  
الخاص وفيما تعيى به عواطفها من الأحاديث والأسمار والقصص  
والأشعار والحكم والأمثال والأعاني والأناشيد والاعتقادات  
والرعات ، وما يتصل بهذا كله من ألوان اللذة العقلية وضروب  
التسلية الفكرية وميول العقيدة الدينية . ذلك لأن الجماعات مهما  
كان طابعها من الالمحطاط والجمود لا يمكن أن تعيش مطوية على  
نفسها مكبوتة العواطف والرعات ، وإما هي تنطلق على سبيلها  
في التعبير عن فيص إحساساتها وتستمدى العطرة في التصوير  
الفنى لشي رعاتها ولطفاتها وما يصطرم بين جوانحها من الالفعالات  
الوحدانية الساذجة أو العميقة .

وللشعب عددا من هذه الألوان تراث أدنى حافل ، وهذا  
التراث الشعبى هو أقوى مؤثر في حياة البيئات الشعبية وأكبر  
محرك لوحدات الجموع والمجاهير ، وهذا يمكن أن نقول إن هذا  
التراث هو الدعامة الأولى في بناء شخصية الشعب وتكليف

عواطفه وتلوين اتجاهاته ، فلا يستطيع أحد أن يقول إن المجموع الشعبية قد تأثرت شخصيتها أو تأثر تفكيرها بالمعلقات أو المطولات أو دواوين الشعراء من عهد امرئ القيس إلى اليوم أو بما أنتجه وينتجه الكتاب والباحثون وأهل الفكر والرأى . وكيف؟ وهى تعيش بأمتها وبمستواها مقطعة عن هذا كله بعيدة منه لا تحسه فى كثير ولا قليل ، ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن يثنائنا الشعبية فى القرى وفى المدن تأثرت ولا تزال تقع تحت تأثير قصص أنى زبد الهلالى وألف ليلة وليلة وعمترة والظاهر بيهرس وسيف ابن ذى يزن ووادى جحاً وأمثال ابن عروس وأشعاره ، ثم ما يروى من كرامات السيد البدوى والسيد ابراهيم الدسوقي وشطحات المتصوفة والدرائش . فمن هذا كله تعدت عقلية الشعب وعلى هذا كله تربت شخصيته وتأثرت به إلى حد كبير .

فالمؤرخون والباحثون حين يتناولون الأدب الرفيع على أنه صورة كاملة لحياة الأمة ويأحدون فى دراساتهم هذه القضية على إطلاقها وعمومها إنما يسرفون على الحقيقة ويحملون القضية ما لا تحتل لأن ذلك الأدب مهما بالعنا فى تقدير قيمته وأثره فلن يجده إلا صورة لتفكير طبقة خاصة فى الأمة وهى طبقة لها

امتيازاتها وتقاليدها ، فاذا أرادوا حقاً أن يروا الصورة الكاملة وأن يرسلوا القصية على عمومها وإطلاقها ، فليضموا إلى تقديرهم التراث الشعبي ، بل إنه لأصدق دلالة على توضيح شخصية أهله وتمثيل نمسيتهم ، لأنه وحى العطرة وإلهام الفريزة وفيه تتجلى العواطف واخمة صريحة لا يحجبها تزوير ولا يخفيها ذلك الاصطناع والتأنيق الذى يكون فى أدب الخاصة .

ولقد اهتم الباحثون فى كثير من الأمم بدراسة التراث الشعبى على اختلاف ألوانه واتجاهاته . اهتموا بدراسته على أنه حلقة من حلقات التطور التاريخى والتعمير الأدنى والمعنى ، وعلى أنه صورة صادقة للأدب القومى تتجلى فيها الآلام والآمال التى تسيطر على نفوس العناصر الشعبىة ، ثم على أنه ناحية من التعمير فيها جمال وحياة وفيها متاع ولذة ، ومن العجيب أن الباحثين والمفكرين من المستشرقين قد عنفوا تراثنا الشعبى فى بعض نواحيه وكتبوا فى ذلك بعض الأبحاث فى حدود ما يملكون من الأداة لذلك وما يصل إليه فهمهم وإدراكهم لمظاهر بيثة هم طارئون عليها وعارون بها ، ولكما مع هذا كله لا رنة ، ننظر إلى ذلك التراث نظرة شذراء . ننظر إليه على أنه شيء تافه لا يستحق العناية

والاهتمام ، حتى النواحي التاريخية الصحيحة من هذا التراث لم  
يعن أحد بتحقيقها ، ولا يزال شابنا المشقف يجهلها كل الجهل ،  
فجدد لا يعتقدون في أنى زيد وجحا وغيرهما من الشخصيات  
الشعبية ألا إهم حديث خرافة وكلام فارغ لا أصل له . . .  
وأى شيء فى هذا ؟

إن أدنا المصرى نفسه لا يزال محمولا مطمورا فى مخطوطاته ،  
ولا تزال آثاره مبعثرة فى مكاتب العالم ، ولا تزال جامعاتنا  
ومدارسنا لا تعرف منه إلا شذرات مستورة وقطعا ممزقة ، ولا يزال  
شبابنا يحد ويكد فى ارتياد محافل الأدب الجاهلى ويمد  
ويعيد فى كلام أصححت النفوس تصيق به ، ولكمهم لا يتكلمون  
أنفسهم شيئا من المشقة فى كشف محافل الأدب المصرى الذى  
هو فيض عواطفهم وصورة من حياتهم وطبيعتهم وبيئتهم .

\*\*\*

ومد أعوام عيت بدراسة الأدب المصرى على صورة واسعة  
شاملة ، فعكمت على مخطوطاته فى دار الكتب المصرية أنقصاها  
وأتمحصها ، وكان أن وقعت فى بحثى على هذه الناحية الشعبية  
فاستوقفتنى وقعة طويلة وشغفنى أن أستوفى بالبحث عناصر هذه

الناحية التي أثرت في شخصية هذا الشعب كما قلت إلى حد كبير، ثم رأيت أن أرودها بالدراسة وهي الناحية المجهولة المطمورة التي انصرفت عنها أنظار الباحثين على ما لها من الخطورة البالغة والقيمة العظيمة، ولقد استوفت هذه الناحية دراسة ومبحثاً وتنقيباً ولكن مشاغل الحياة الصحفية جرفتني في تيارها ولم تترك لي أية فرصة للكتابة في هذه الناحية ولم تمكنني من أن أتقدم بنتيجة بحثي ودراستي للقارئ، ثم كان أن كنت أحرر في مجلة أدبية كبيرة وفي يوم تلقت المحلة من أحد القراء سؤالاً عن حقيقة أوى زيد الهلالي والتقصص الذي يحكي عنه، فهل هو حقيقة أم خرافة وتلفيق خيال، وحلست أجيب عن هذا السؤال فامتد بي الكلام حتى كان هذا البحث الذي أقدمه اليوم إلى القراء والذي يتضمنه هذا الكتاب، وإني لأذكر أن سؤال ذلك السائل ظل ينتظر مني الجواب إلى اليوم.

في هذا البحث، بذلت جهد الطاقة وقدر الإمكان في تقصى الثابت في التاريخ والموضوع في القصص والشائع عند الناس، وعينت أن أسهب فيه ههنا حديثاً يقوم على التمهيص والتحقيق والاستنتاج والمقارنة والتحليل والتعليل، وأردت أن أقدم من



هذا كله صورة للقارىء فيها إشباع للعقل وإمتاع للقلب وموانسة للروح ، وأن أكشف عن ناحية لها بتاريخنا صلة وثيقة وفى ثقافة الشعب وعقليته أثر كبير . وقد تناولت فى هذا البحث تاريخ نبي هلال وسليم وقصصهم وسير أبطالهم ولكنى عنونتة باسم « أبو زيد الهلالي » لأنه أظهر بطل فى القصة ولأن القصة قد عرفت وذاعت فى البيئات الشعبية باسم هذا البطل الكبير ، وإنى لأقدم المذرة للقراء إذا ما رأوا إجمالاً فى بعض نواحي البحث فقد اضطررت إلى ذلك ضيق المقام .

محمد فهدى عبد اللطيف

## الفصل الأول

### بنو هلال وسليم :

هؤلاء قوم دكرهم في القصص أكبر من دكرهم في التاريخ ،  
وحديثهم في السمر أمتع وأروع من حديثهم الصحيح . العامة  
يجلون قدرهم ويرتفعون بمقدارهم ، وكأني بالخلاصة قدترفوا عنهم  
فلم يجعلوا مخبرهم ولم يهتموا بتاريخهم . حتي القدماء من المؤرخين  
قد مروا بهم مر الكرام ، ونظروا إليهم في غير احترام ؛ ولولا  
العلامة ابن خلدون الذي تتنع أسابهم وتانع سيرهم وأكبر من  
شأنهم لما وقعنا لهم على خير يذكر ، ولا وقعنا لهم على  
تاريخ يؤثر .

هذا في القديم ، وهذا في الحديث أيضاً . فإليك لا تجد في  
العربية ناهياً قد اهتم بتاريخ هؤلاء القوم أو عني بدراسة  
القصص الذي يحكي عنهم والأسماء التي تتصل بهم ، على حين يجد  
المستشرقين كمادتهم قد تجمعه بالدرس وتناولوه بالبحث .  
حتى كتبوا في ذلك الكتب الوافية والمصول الصافية . وتقول  
دائرة المعارف الإسلامية إن ( ناسيه ) و ( هارتمان ) كانا أول من

بحث هذا القصص — أى قصص بنى هلال — بحثاً قوامه العلم  
والعلم ، وإن ( بل ) كتب بعد ذلك كتاباً قياً فى هذا الموضوع  
عنوانه ( الجازية ) شقيقة سلطاهم الحسن بن سرحان .  
وللناحئين العرسيين عناية ظاهرة بتاريخ هؤلاء القوم وتاريخ  
البرر الذين كانوا يقطنون شمال أفريقيا ، وهى عناية ترجع إلى  
صلة فرنسا الاستعمارية بتلك البلاد ، وباحية من البحث  
التاريخى ، دفعت إليها وجهة سياسية . ورغبة فى المعرفة  
للسيادة والحكم

### أوليتهم فى التاريخ :

وخبر بنى هلال وسليم فى التاريخ خبر قديم وسهم فى العرب  
نسب صحيح ، فهم من بطون مصر ، و بطون مضر كثيرة متعددة  
كانت كلها تعيش فى الجاهلية على البداوة والخشونة وتطلب  
المبجعة حيث مساقط الماء ومابت العشب ، فلما جاء الإسلام  
دخل كثيرون منهم حظيرته وحملوا رايته وغلوا الأمم على  
أمورهم وملسكوا الأقطار والأمصار وتمت لهم السيادة أيام بنى أمية  
فى الشام وبنى العباس فى العراق ، ثم بنى أمية مرة أخرى فى  
الأندلس ، فانقسموا فى الدنيا وافترقوا على الثعور البعيدة كما يقول

ابن خلدون ونبئت أجيالهم في ماء النعيم، واستطابوا خفض العيش وطال يومهم في ظل الترف والسلم ونسوا عهد المادية، واملتت من أيديهم المملكة التي نالوا بها الملك، واتخذوا البطانة من موالى الأعمام وصنائع الدولة فاستوت الحامية بالرعية والأصيل بالدحيل، واختلطت عرب الفتح بالهملج، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها، ولا تدكروا عهد الأساب لدروسها، فذثروا وتلاشوا شأن من قبلهم ومن بعدهم؛ سمة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

### قائاتهم في نجد :

وقد كانت ثمة بطون من مصر بقوا على حالهم الأولى ولزموا نهجهم القديم، فطلوا يصربون في الوديان ويتمقلون بين الشعاب ويستظلون بالحلل والوبر، وقد كانت هلال وسليم من هذه البطون، وكانت محلاتهم من بعد الحجارة بنجد. وسو سليم مما يلي المدينة وسو هلال في جبل غزوان عند الطائف. ويقول الألوسي في تاريخ نجد: «إن في قرى الوادي سجد بقعة تسمى بالهلالية وإن ناحية القصيم كانت تحت إمارة رحل من آل سليم». فلعل ذلك مما بقي من آثار القوم هناك. وبطراً

لصيق الرق في تلك البلاد وقلة الكفاية في الأقوات، كان بنو هلال  
وسليم يطوفون رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق ، فيغيرون  
على الضواحي ويمسدون السائلة ويقطعون على الرقاق، وكثيراً  
ما كان بنو سليم ينقصون على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة  
بالمدينة حتى أفرعوا دار الخلافة وأضجروا القائمين بالأمر وغضوا  
من سمعة الدولة ، وكثيراً ما كتب العباسيون الكتاب وحشدوا  
الجنود للايقاع بهم وصون الحاج من عيهم وعيهم ، ولكن  
كل ذلك لم يعل في عزمهم ، ولم يحد من طغيانهم ، بل راد  
حطهم واستفحل شرهم . إذ ظهر القرامطة بدعوتهم الهدامة  
وصاروا يعيرون على أطراف مصر والشام والحجاز حتى دخلوا  
مكة وهبوا الكعبة واقتاموا الحجر الأسود من مكانه ووضعوا  
السيف في الحجاج والزوار وفرصوا عليهم الفروض وأخذوا منهم  
الإتاوات ، ويقول ابن خلدون : إن بنى سليم والكثير من ربيعة  
ابن عامر قد تحيزوا إلى هؤلاء القرامطة عمد ظهورهم وصاروا  
جنداً لهم بالبحرين وعمان ، فكانوا يعينونهم في حروبهم ،  
ويظاهرونهم في إفسادهم . ثم يقول ابن خلدون : وكان  
القرامطة قد تعلبوا على الشام، والشام يومئذ تابعة لخلافة العاطميين

في مصر فاترعهما العزيز منهم وردهم إلى قوارهم بالبحرين ، ونقل  
أشياءهم من العرب من نبي هلال وسلم فأنزلهم الصعيد في  
العدوة الشرقية تجاه البحر الأحمر ، فأقاموا هناك وكانت لهم  
أضرار بالبلاد .

### قصة الجازية والشريف :

ثم يقول ابن خلدون : وهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن  
دحوهم إلى أفريقية طرق في الخبر ، فهم يزعمون أن الشريف  
ابن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح ،  
وأنه أصهر إلى الحسن ابن سرحان في أخته الجازية فأكسحه  
إياها وولدت منه ولداً اسمه محمد ، وأنه قد حدث بينهم وبين هذا  
الشريف معاضة وفقنة فأجمعوا أمرهم على الرحلة عن نجد إلى  
أفريقية واحتالوا عليه في استرجاع هذه الجارية ، فطلبت زوحها  
في زيارة أهلها فأرارها إياهم وخرج بها إلى حلاهم ، فارتحلوا بها  
و نه وكنتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم سيماكرونه إلى  
الصيد والقتل ثم يروحون نه إلى بيوتهم ، فلم يشعر بالرحلة إلى أن  
فارق موضع مكة وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم فرجع ،  
إلى مكانه من مكة وبين حوايجه من حب الجارية داء دحيل

وأما بعد ذلك كلمت به كلمه بها إلى أن ماتت من حبه ،  
ويتناقون من أخمارها في ذلك ما يفيض من خبر قيس مع ليلي  
وكثير مع عزة ، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني متقمة  
الأطراف وفيها المطبوع والمصنوع والمنحول ، وهم يثقفون على  
الحر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف وجيلاً  
بعد جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عديم  
بالجنون والخلل لتواترها بينهم ، وهذا الشريف الذي يشيرون  
إليه إنما هو من الهواشم وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن  
جعفر بن هاشم ، وأبو الفتوح هذا هو الذي حطب لنفسه بمكة أيام  
الحاكم إذ بعث إليه سو الجراح من أمراء طي\* بالشام فوصل  
إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب ، ثم غلبتهم عساكر الحاكم  
فرجع إلى مكة وأظهر الطاعة للعاظميين ، ومات سنة ثلاثين  
وأربع مائة ، فتولى من بعده ابنه محمد الذي يزعم الهلاليون أنه  
من الجارية<sup>(١)</sup>

ولقد ألع ابن خلدون إلى هذه القصة من قبل فقال وهو  
يتحدث عن دولة الهواشم بمكة : ثم تولى الأمير أبو الفتوح

---

(١) ح ٦ ص ١٧ وما بعدها

سنة ثلاثين وأربعمائة، وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر، وشكر هذا هو الذى يزعم بمو هلال أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأتبيج منهم، وهو حرم مشهور بينهم فى أفاصيهم وحكاياتهم التى يتناقلوها ويطرزونها بأشعار من جنس لغتهم، وقد اهتم ابن حلدون فأورد فى المقدمة جملة من تلك الأشعار التى قالوها فيما كان بينهم وبين الشريف، والتى قالها الشريف أو قيلت على لسانه فى السكاء على الجارية والجرع لعراقها.

#### مناقشة ابن حلدون :

والظاهر أن المؤرخ الكبير إما ذكر هذه القصة على أنها مما يحكى ويقال لا على أنها حقيقة تاريخية، أو هو على الأقل لم يعن تتمحيصها والبحث فى صدق وقائعها؛ والواقع أن هذه القصة ليست من العراة والإحالة بحيث يردّها العقل، ولكن المؤرخين لم يأتوا بما يدعمها فى العقل، فان حلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أوردّها وأثبتها على علتها، وقد كتب الشيخ حسن العطار أمام هذه القصة هامش النسخة البولاقية ما نصه : قصة أى ريد التى تحكى فى قهاوى مصر أصلها هذه الواقعة كما أشار لذلك



المؤلف ، وكثيراً ما كنت أطلب لها أصلاً في التاريخ فلم أجده إلا في هذا الحل .

ولقد كما في حل من أن نقبل هذه القصة كما رواها ابن خلدون لأنها كما قلنا لا يحيلها العقل ، ولأنها تتصل بأشخاص لهم خبر صحيح فشكر والجارية والحسن بن سرحان وإمارة شكر على مكة وخروج العرب من مجد . كل هذه العناصر ثابتة صحيحة ، ولكن ابن خلدون وهو المؤرخ الوحيد لهذه القصة قد رواها بلغة تم عن ضمها وتدل على عدم ثقته بها واطمئناؤه إليها ، فتجده يقول : ويزعمون ، ويحكون في قصصهم . ثم إن ابن خلدون قد ذكر من قبل أن خروج العرب من مجد إما كان على عهد العزيز ، وشكر الذي تشير إليه قصتهم إما كان على عهد المستنصر ، أي بعد أن مصت خلافة العزيز والخاكم والطاهر ، وأظهر من هذا في التماس أن ينص ابن خلدون على أن العزيز هو الذي استقدم بني هلال وبنو سليم إلى مصر ليمعدهم عن مشايعة القرامطة في إغاراتهم على مصر ، ثم يقول في القصة إنهم أجمعوا الرحلة عن مجد لمعاوضة وفتنة بينهم وبين شكر ، ثم إن ابن خلدون يذكر أن هؤلاء العرب قد فارقوا بلادهم إلى مصر ثم انتقلوا إلى

إفريقية ، ولكن القصة تدل على أنهم فارقوها إلى إفريقية مباشرة ولم تشر إلى نزولهم مصر . وأخيراً تقول القصة إن شكراً قد أعقب ولداً اسمه أحمد من الجازية وأنه قد أخذ الإمارة من بعده ، ولكن ابن حرم يقول إن شكراً هذا لم يولد له ، وأن أمر مكة صار من بعده إلى عبد كان له ، بل إن ابن خلدون نفسه يدكر في الكلام على دولة الهواشم أن الذي تولى من بعد شكر سنة أربع وخمسين وأربعمائة إنما هو محمد بن جعفر وقد حطب للمستمر العيديد . فكل هذا الذي ذكرناه يحملنا على أن نقف من القصة موقف المستريب ، وأن ننظر إليها نظرة المتنصر .

على أننا بعد هذا كله نرى أن هذه القصة قد تكون صحيحة في أصلها وإن كان قد وقع بعض الخلط في تفصيلها ، خاصة وأذن القوم كانوا يحفظونها بالرواية ويتناقلونها بالحكاية حتى طال عليها الأمد وامتد بها العهد ، وذلك مظنة الزيادة والنقص والتحريف والتحريف . وليس ما يمسح أن يكون العرب لما أعراهم العريز بذهبه قد اصطعموا المفاضبة مع الذين كانوا تحت إمرته من الهواشم ، ولم يسمح لهم شرفهم بترك ابنتهم الجارية في بلاد سيرحلون عنها ، فلما جاء القوم من بعد وتناولوا القصة بالحكاية بعد أن نزلوا مصر

ثم رحلوا عنها إلى إفريقية ذكروا ولده الشريف بأسم شكر الذى كان موجوداً لذلك العهد وعلى هذا كثر ذكره فى قصصهم وأشعارهم التى سنتناولها بالبحث فيما بعد .

### نزولهم مصر وخروجهم منها :

نزل بنو هلال و بنو سليم أرض مصر فى كثير من بطونهم وأتباعهم — وقد اتخذوا منازلهم على ما قدر لهم العريز العاطى بالصعيد فى حدود المدوة الشرقية لليل، والظاهر أنهم قد انتشروا بعد ذلك فى كثير من واحة الصعيد حتى قال الحمدانى : وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها<sup>(١)</sup>، ويقول المقرئى فى (البيان والإعراب عما نأرض مصر من الأعراب) : وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب، وأخيم مهم سوقرة وبساقية قلته بنو عمرو . وفى بنى هلال عدة بطون : مهم بنو رفاعه و بنو صبحيرو بنو عزيز، و ناصمون وأسنا سو عقنة و بنو جميلة .

ولقد كان شأن هؤلاء العرب فى مصر كما كان شأنهم فى نجد ، يعيشون على البداوة والحشونة ويحرون على طبيعتهم

---

(١) صبح الاعشى ج ١ ص ٣٤٥

فى السلب والنهب والإعارة ، وجميع المؤرخين لا يذكرونهم فى مصر إلا بهذا المعنى ولا يقعون بهم إلا عند هذا البعت ، حتى أن ابن خلدون الذى كتب تاريخهم وأشاد بذكرهم يقول : « وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرهم » . بل لقد خرج بعضهم على بعض ونشب الخصام بين رياح وزغبة فيهم ، فتقارعوا على المحلات والمساكن ، وكانوا كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله ؛ وكان العزيز إذ نقلهم إلى مصر اتقاء لشرهم إنما جلب على الدولة شراً أكبر وخطراً أعظم ، وما ارتاحت البلاد والدولة منهم حتى خرجوا فى شأنهم إلى إفريقيا .

### السبب فى خروجهم :

وسبب خروجهم هذا أن المعز بن باديس ملك صهاجة والقيروان من قبل الخليفة العاطمى كان قد انحرف عن مذهب الشيعة إلى أهل السنة ، وكما به فرسه على حد تصوير ابن خلدون فدعا مستعصياً بالشيخين أئى بكر وعمر وسمعته العامة فثاروا بالشيعة وأمعوا فيهم بالقتل والسلب حتى قتلوا دعايتهم وهدموا بيوتهم ، وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة العاطمى فغضب وتغير ، وكتب وزيره

أبو القاسم الجرجاني إلى المعز يحذره المغبة ويتهدده بالقتال ، فرد عليه المعز بالتعريض وأغلظ في الجواب ، وزاد في عياده فقطع الدعاء للفاطميين سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر حتى لقد أحرق بنوده ومحا اسمه من الطرر والسكة ، وغير من الآذان حتى على حبر العمل ، ودعا للقائم بن القادر من حلفاء بغداد وحظي منه بالتقليد والخلع ، وقرئ كتابه على الناس بجامع القيروان ونشرت الرايات السود التي هي شعار العباسيين . ثم إن المستنصر كان قد استوزر محمد الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الورارة ، وإنما أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحا بها وكان هو من أهل العلاحة ، فاستخف به المعز من ناديس ولم يكتب إليه كما كان يكتب إلى الوزراء من قبله ، فعظم ذلك علي اليازوري وحز في نفسه فأكثر من الوقعة في المعز عند المستنصر وأغراه بحربه ؛ ولما كانت الدولة لا تأمن على حيوشها في تلك المعاوز القاصية فقد أشار عليه أن يرميه بأولئك العرب الذين طموا في البلاد وأكثروا فيها المساد فأن صدق الظن في ظمهم بالمعز وصنهاحة كانوا أولياء للدعوة وعمادا للدولة وعماله بتلك الروع البائنة وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وأمر العرب

البادية على أى حال أهون من أمر صنهاجة الملوك ، وإن كانت  
الأخرى فلها ما بعدها .

### رحلتهم الأولى إلى إفريقية :

وكان من الطبيعى أن يستمع المستنصر لمشورة وزيره ، ولا  
بد أنه قد وجد فى هذه المشورة مخرجاً يحتمل له ، ولعله — إن  
صححت المراسلة فى العرب — يشفى عيظه من ان ناديس الذى  
عدا طوره وشب عن طوقه وانتكس بأمر الدعوة والولاية ،  
وسرعان ما أرسل الخليفة دريره إلى أحياء أولئك العرب بالصعيد ،  
وكان همه الأول أن وفق بينهم وأزال الخلاف الواقع بين رياح  
وزعابة ، ثم فاوصهم فى الغرض المهم ، وأعراهم بما فى تلك البلاد من  
الحيرات والثمار والرروع ، وكتب لهم بالولاية على كل ما يعتمونه  
من بلاد المعر ، وأعاهم على السفر فأعقد لأمرائهم فى العطاء ووصل  
عامتهم بدينار وربع لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد والعدد ،  
فجمع العرب جموعهم ووحدا وأصدقهم وعرعوا للأمر الذى انتدوا  
له فى حشد حرار وحاش لحب ، وكتب اليارورى إلى المعز بذلك  
يقول : أما بعد فقد أنقذا اليكم حيولا فحولا وحملنا عليها

رجالاً كهولاً ليقضى الله أمراً كان معمولاً<sup>(١)</sup>

ولقد كان في هذه الرحلة كثير من بطون هلال وسليم . منهم رياح والأثنج ورغبة ودياب ولهب وعرف ومرداس ونو ثور ونو عطية، وكان معهم كثير من فرارة وأشجع من غطفان وحشم من هوزان وهلال بن مرة والمصل من بطون اليمية وطرود من فهم بن قيس وغيرهم من البطون والأخاذ والعشائر، ولكمهم كانوا جميعاً مدربين في هلال وخاصة في الأثنج منهم ، لأن الرئاسة كانت لهم والأمانة فيهم ، وكان على رأس الراجلين جملة من الرجال المذكورين بالمطولة والشجاعة والمتقلدين للرئاسة والإمارة، منهم الحسن بن سرحان وأخوه بدر وسلامة بن ررق المشهور عند العامة بأبي زيد الهلالي ودياب بن عامم والفصل بن ناهض وزيد العجاج بن فاضل وريد بن ريذاف وموسى بن يحيى وشامة بن أحمير وأخوه صليص ومليحان بن عباس وفارس بن أبي الغيث وأخوه عامر والفصل بن علي ويحيى بن مؤس وكلهم أثناء عمومة يجمعهم النسب المشترك ويؤلف بينهم العرض المتفق، وهم يدكرون

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤ و ١٥٩ وابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٥

في القصص الذي يحكى، وقد يقع في أسمائهم من التحريف بقدر ما يلصق بهم من التخريف .

وحر هذه الرحلة يذكره المؤرخون غالباً بعنوان : دخول العرب إلى افريقية وهم يختلفون في تحديد تلك البقعة من الأرض، فالبكري يقول : إن افريقية تحد شرقاً برقة وغرباً بطنجة ، وهي تمتد من الشمال إلى الجنوب من شواطئ بحر الروم إلى الرمال التي في أول السودان . ويقول الأصطخري : إن افريقية تقع ما بين رقة وتاهرت. ويقول أبو العدا : إن افريقية تبتدىء من الحد الشرقى لأقليم بجاية وتنتهى عند رقة وإن بحاة وبونه وقصعة تقع خارج افريقية . ولكن ابن خلدون يصيق من حدود هذا الإقليم ويطلق هذا الاسم على الجزء الأوسط والشمالى من بلاد تونس ويقول إنه يقابل طرابلس وبلاد الجريد وأقليم قسطنطينية ، ومهما يكن من اختلافهم في تحديد ذلك الإقليم فإن العرب قد دخلوه من قبل ، وقد تم فتح تلك البلاد على يد عمدة ابن نافع سنة خمسين للهجرة ، وقد وفد عليها كثير من القبائل العربية وكان يستوطنها لذلك العهد بنو قررة وهي قبيلة تنسب



في هلال بن عامر، أى أنهم أيضاً من الهلاليين ومن أعرقهم  
في النسب<sup>(١)</sup>

### بنو قرة في برقة :

ولقد سبق بنو قرة إخوانهم في الدخول إلى امريقية ، ولهم في ذلك أيضاً أخبار وأحداث رهينة . وذلك أن الحاكم العاطي انتدبهم للسير مع يحيى بن على الأندلسي لبعثته على صنهاجة فخرجوا معه ولكنهم خذلوه وتخلوا عنه ، ثم عادوا إلى برقة واستوطنوها ، فأرسل إليهم الحاكم فامتنعوا فخذعهم بذل الأمان لهم ، فلما حصر وقدم إلى الاسكندرية قتل عن آخره ، وقد أمعن الحاكم في الاستعداد بهم والتصيق عليهم ؛ ثم كانت ثورة أى ركة وخروجه على الحاكم فانهزم إليه بنو قرة وظاهروه حتى كاد يتم له النصر على العاطميين ، ولكنهم عادوا لخذلوه ومكروا الحاكم منه . وهذا صلح الأمر بينهم وبين الحاكم وهدرت حمايتهم القديمة ولكنهم لم يسكنوا على هذا ، بل إهم في سنة اثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية برسالة من باديس بن المصور ملك

---

(١) راجع البيان والإعراب للقريري ص ٣٢ و ٣٣

صنهاجة إلى مصر فحببوا ثم اقتحموا برقة وغلبوا العامل عليها ، ولم يزل هذا شأنهم حتى نزل عليهم إخوانهم من بني هلال فتلقوهم بالقبول واندمجوا فيهم ، ويقال إن شيخهم ماصى بن مقرب قد أسهر إلى الحسن بن سرحان في الجازية من بعد شكره ، وتعتبر غزوة بني قره لأفريقية الغزوة الأولى ، وغزوة بني هلال الغزوة الثانية ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن الغزوة الثانية هي الغزوة التي يحكى عنها ذلك القصص الشائع بين الناس

### الرحلة الثانية :

ولقد كانت برقة عندما نزلها بنو هلال أرضاً عامرة بالخيرات باصرة بالزروع والثمار ، وقد استطاع العرب أن يسيطروا على ذلك الإقليم من جميع أطرافه وبواحيه ، وقد أمعنوا في التخريب والنهب كما دبتهم ولجوا في المساد على طبيعتهم ، وكأ أنهم وجدوا العيش أطيب مما كان في صعيد مصر وصار لهم قسط من الحرية أوفر مما كانوا عليه في ساحة الحلافة ، فكتبوا إلى ما تبقى من إخوانهم في مصر وحسنوا لهم الرحلة إليهم واللاحق بهم ، فرحلوا بعد أن أجازهم اليازورى واقتضاهم عن كل شخص ضعف ما أعطاهم في

الرحلة الأولى ، وما زالوا يعذون السير إلى أن وافوا إخوانهم في رقة .

فاضت جموع الهلاليين وإخوانهم على أفريقية في سنة أربعين وأربعمائة للهجرة كالجراد المنتشر على حد ما يعتهم به المؤرخون ، فكاثروا رهاء الأربعمائة ألف أو يزيدون ، وكلهم طامع في الغنم نارع إلى المتح ، إذ كتب لهم الخليفة العاطمي بالولاية على أفريقية واقتسام أقاليمها وترك لهم تحقيق هذا بسيوفهم وتوطيده رماحهم ، وكأني بالقوم قد خمرتهم هذه الثقة وغمرتهم روح العزة فاندفعوا في طريقهم كالسيل الجارف ، لا تصدم قوة ولا تردهم عقبة ولا يعصم من طغيانهم حصن .

وكانت رقة في طريقهم مدبل صيافة لهم على إخوانهم السابقين من بني قرة والذين رحلوا معهم الرحلة الأولى كما أشرنا من قبل ، وقد عمرت جموعهم جميع ولاية رقة ، واحتشدوا في المدينة الحمراء وأحداية وأسما وسرت وغيرها من المدن العامرة ، وطأت لهم حيراتها وأوراقها ، ثم خلفوا عليها قبيلة هب من بني سليم وأحلافها ورواحه وحصرة وعميرة ، وانطلقت بطون هلال وقبائل دياب وعرف وزغبة في طريقهم لا يبقون على شيء .

زایل العرب برقة ومضوا فى طريقهم يفتحون البلاد  
ويجتاحون العباد ويستعمرون الأقاليم حتى وصلوا إلى أفريقية  
فى ستة ثلاث وأربعين وأربعمائة، ثم تدفقت قبائل رياح والأثبيج  
وسى عدى على قلب أفريقية قصداً إلى القيروان . يقول ابن  
الأثير : فلما رأى مؤسس من يحيى المرادى أمير رياح قصدهم هذا  
قال لهم : ليست المبادرة إلى القيروان عندى رأى . فقالوا إذن  
كيف نحب أن نصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه على الأرض ثم قال  
لهم : من فيكم يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشی عليه ؟  
فقالوا كلهم لا نقدر على ذلك . فقال : فهكذا القيروان . فحدوا  
شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فحدوها حينئذ . فقالوا : إنك  
لشيخ العرب وأميرهم وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع برأى  
دونك . وعلى هذا كانت خططهم فى فتح البلاد ودخول  
القيروان من بعد (١)

#### ملاقاتهم للعرب بن باديس :

ولما علم المعز بن باديس تنوغل القوم وقدمهم لمبارلته ، وبلغه

(١) راجع ابن الأثير ص ٢١١ وما بعدها

الخبر عن مكانة مؤنس بن يحيى فيهم وسيره في طليعتهم ، أسرع إلى استمالة هذا الأمير وكتب إليه يستدعيه وأغدق عليه العطايا والهبات . وكان المعز قد أراد هذا أن يسلك طريق الحماة ، يغلب القوم بالاستمالة والتفريق بينهم ، ولكن هذا لم يجرده ، فإن الفسائل الأخرى من هلال وأخواتهم قد اندفعوا في صدهم ولم يجزوا المعز عما فعل من الإحسان كما يقول بن الأثير ، لشنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وحاصروا المدن ، وصرح اليهم المعز الجيوش المتتابعة فأوقعوا بهم الهزائم المنكرة ؛ فحينئذ أدرك الخطر وهض الامر بنفسه وخرج لهم في حيش حرار من من البربر وقبائل رماة وصهاجة بعد أن تألهم والعرب الذين تنقوا من أيام الفتح الأول ، فكان له من ذلك ثلاثون ألف فارس ومثلهم من الراحلين ، والتقى الفريقان قريبا من جبل « حيدران » بالجبوب الشرقي على الطريق المتسع بين قابس والقيروان ، وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس ، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة العبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم ، فقال لهم مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار . فقالوا : أين نطعن هؤلاء

وقد لسوا الكداعات والمغافرة . فقال : فى أعينهم . فسمى ذلك اليوم يوم العين .

التقى الفريقان ووقعت الواقعة قاسية عنيفة ذهب فيها كثير من فرسان الفريقين ورجالاتهم، ولكن العرب العاتحين صدقوا فى موقفهم . واحجار إليهم عرب الفتح الأوائل استجابة للعصية القديمة، وانخلت زبابة وصنهاجة عن المعز، فحاول الرجل أن يثبت فى جده الخاص وعيده، وكان عددهم نحو عشرين ألفاً أو يزيدون ، ولكن القتل كثرفيهم واستمرت الهزيمة عليهم، فأدرك المرأ الصبر لا يجدى وأن للفراة شراسة لا يحتملها حده، وحده ولا يردھا عدده فرجع إلى القيروان، وقد غم العرب فى هذه الموقعة كثيراً من المغام واستولوا على كثير من المال والمتاع والمساطيط والرايات .

على أن المعرلم يهن ولم يستسلم بأراء هذه المكمة القاصمة، فحاول محاولة أخرى لإنقاذ ملكه من أولئك الفراة الشرسين ، فجمع جموعه مرة ثانية وخرج مبكراً فى يوم عيد البحر من تلك السنة بحيش قوامه عشرون ألف فارس وعهم على العرب وهم فى صلاة العيد وأعمل فيهم القتل والطعن ، فسارعوا إلى ركوب حيلهم

وصدقوا في الوقوف له وكرروا عليه كرة عنيفة فامخضلت صنهاجة أمامهم ، فعاد المعر إلى جمع جموعه وخرج بنفسه في جيش كبير من صنهاجة ورنانة وتصدى للعرب عند منازلهم قريباً من جبل « حيدران » فشب القتال بينهم واشتد الطعن والزلزال ، ووقف العرب على عادتهم موقف صدق وصر ، فاهزمت صنهاجة أمامهم بعد أن قتل منها ثلاثة آلاف وثلثمائة ، ثم تبعها زنانة ، فثقت المعر فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً ووقف موقفاً مشهوداً ، ولكن العرب شددوا عليه ، ففر أمامهم وامخضل إلى المنصورية وشرع في تحصيدها فأحاطها بسور شاهق امتد به حتى أوصله إلى القيروان في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، حتى يعصم نفسه من أذى هؤلاء العرب ويصع حداً لتحرشهم بملكه (١) .

#### دخولهم القيروان :

أنتم المعر بماء السور ، وهيئات أن يرد هؤلاء الأعراب بناء أو يعصم من طغيانهم سور ، فقد آتاهوا المعر في قرارة ملكه واندفعوا من وزائهم يخربون ويعيشون حتى انتهوا إلى القيروان واقسموا

---

(١) ابن الأثير .

ما فتحوه من البلاد فيما بينهم سنة ست وأربعين وأربعمائة، فكان  
لزغبة طرابلس وما يليها، ولبرداس بن رياح ناحة وما بعدها،  
وأخذوا بعد ذلك في محاصرة القيروان نفسها، فمنعوا عنها كل صلة  
بالخارج، وشددوا على القرى والضواحي، ووقع الأذى والضرر  
بالناس، وطال أمد الحصار وضجرت الرعية من طوله؛ بل لقد  
استطاع العراء أن يفتحوا الأسوار وأن يبارلوا المعر في داخل  
القيروان، ففر السكان إلى تونس وجلوا عن منازلهم وأملأهم  
حاجة بأنفسهم من بطش القوم وفتكهم، وأدرك المعز أنه لا قبل له  
بمحاربة ملكه من هؤلاء الطغاة الفاتحين، ففاوضهم على الصلح  
وتخلى لهم عن القيروان وأمر السكان بإحلالها، ونزع في أهله  
وحشمه سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خميره منهم مؤنس بن  
يحيى<sup>(١)</sup> أمير رياح الذي ذكرنا خبره من قبل، فبذل بالمهدية على  
اسمه الأكر الأمير تميم عامله على المدينة، وبعث ابن خلدون على  
هذه الحادثة فيقول: ودخل العرب القيروان فاتهموها وأقام  
المعر بالمهدية وتبرى المواري في البلاد<sup>(٢)</sup>.

(١) ويدكره ابن خلدون أيضاً باسم يونس.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩.



ولا شك أن امتلاك العرب للقيروان قد مكبهم من ناصية البلاد، ولا شك أن هذا الغنم الكبير قد صيرهم تجاه وضع جديد، فأعادوا اقتسام البلاد فيما بينهم، وغيروا ما كانوا أحروه من القسمة من قبل، وقد كان من جراء هذا التقسيم أن فارت هلال و بطونها بنصيب الأسد، فكان لها من توس إلى العرب، وكان لسليم وقمائلها الشرق، وقد ظل العرب مسرحاً للحوادث والوقائع التي تتابعت فيما بعد بين هؤلاء الأعراب وبين القاطنين بالأمر على تلك البلاد .

### تخميم حصن القيروان العظيم :

ولكن كيف دخل الهلاليون القيروان ؟ وكيف اقتحموا ذلك السور المتين الذي صر به عليها المعر؟ وكيف استطاعوا أن يحطموا مقاومة العدو داخل القيروان وخارجها؟ إن الرواية التاريخية تمر بذلك مرأ عاراً لا يمدو الإفادة باقتحام السور بعد طول الحصار، ولكن القصة قد عبت بتعصيل ذلك وصورته تصويراً رائعاً نارعاً يطابق ما يجري في أساليب الحروب الحديثة من صروب الحيلة وفنون التجسس، إذ تعيد بأن الهلاليين أنفسهم قد صبحروا

من طول الحصار وثقلت تكاليفه عليهم ، ورأوا أن المدينة منيعة  
التحصين أمامهم ، وأن أنصارهم داخلها قد طال بهم الانتظار ،  
ولكن كل هذا لم يفت في عضد القوم بل زاد في رغبة رعيهم  
أن يزد الهلالي وإصراره على افتتاح السور وتحطيم مقاومة العدو  
مهما كلفه الأمر ، وفي ذلك يقول البيت السائر :

ولا بدمن لطمه على باب تونس      ولو حال دوى ودوسها العقبان  
وقد حاول هذا الرجل الداهية أن يمهّد لسيوف قومه بالحيلة ،  
وقد هداه تفكيره إلى ابتداع حيلة طريفة كان هو بطلها وكانت  
المرأة وسيلتها ، إذ خرج سرب من العذارى الجميلات ومعهن  
عبد أسود لم يكن إلا أبو ريد الهلالي نفسه متفكرًا ، ثم قصدن إلى  
سور المدينة في موكب يموج بالفتنة والخلاعة ، ومارلن يتحصين  
منصورا القاتم على الباب ويلتمسن منه التفرج على المدينة  
والطواف بأسواقها ويغنين له أغنية مطلعها .

افتح يا منصـور      افتح باب السور ،

افتح للعـذارى      .....

ففتن الرجل بمحاملهن وخبل بإشادهن ، ففتح لهن ، وهذا  
تمكن عندهن « أنور يد » من الاطلاع على الأسرار الداخلية في

المدينة ، واستطاع أن يتصل بأنصار الهلاليين وأن يتبين مواطن الصعف في استحكامات العدو وفي مقاومته ، ثم رجع إلى قومه بمعلومات نافعة مكنتهم فيما بعد من اقتحام السور و بسط نفوذهم على القيروان .

وثمة ناحية أخرى في هذا المقام تشير إليها القصة وهي تدل على أن الهلاليين وأحواهم رأوا أن محتاطوا لأنفسهم قبل القيام بالهجوم على القيروان ، فعدوا مجلس الشورى وقرروا أن يقوم الأمير دياب بن عامر في مؤخرة النجوع الهلالية يحمى الإبل ويحرس الأموال ويدب عن الساقة ويؤدي حق الشيوخ والنساء والدراري الصعيقة ، وقد قام دياب بهذه المهمة وأبدى فيها من الصرامة والمهارة ما دل على فروسيته ؛ ثم لما ابتدأ — الهجوم واشتدت وطأته اقتصى الأمر نقله إلى المقدمة لمماجزة العدو والتغلب عليه ، وقد كان له في ذلك محال واسع تفيض القصة في تصويره وفي تقديره .

هذه تفاصيل قد اندردت القصة بدكرها ، ونحن إذا حردناها من حواشي المألعة محددا سائعة مقبولة ، بل أسا لمبح في الرواية التاريخية ما يؤيدها ، فقد ذكر ابن خلدون أن زغبة قبيلة دياب

قد قدر لها القوم الإقامة في رقة أول الأمر ثم نقلت بعد الهجوم على القيروان إلى المقدمة ، وعلى أى حال فقد تم النصر للأعراب العراة بعد حصار شديد الوطأة وبعد وقائع وحروب دامية قاسية ، وقد صارت لهم القيروان بأموالها وقصورها .

### بعد الاستيلاء على القيروان :

كان اقتحام الأعراب للقيروان وتعلمهم على صواحبيها ضربة قاسية قصت على آمال المرزباديس وهدت كيان الدولة الصنهاجية العتية ، فذهبت مما كان لها من عروم وتمد ، وأنت على ما كانت فيه من العيم الوارف والدح العياض ، ولقد رآها العمال والولاة في دولة العرفصة ساححة فاستنقل كل منهم مما تحت يده حتى صارت الدولة الكنيرة إلى حملة ولايات كل ولاية منها تحت حاكم مساط أو ثائر متمرد .

على أن الشر قد استحصد إلى أبعد من هذا الحد إذ أمعن الهلايلون وإخوانهم في مصاينة المرز وتعمقه ، فبرلوا عليه المهديّة وصيقوا عليها بمدح المرافق وإفساد السابلة ، فاستكان الرجل لما كان ، وصبر عليها محبة قاسية تحيق بكل عزيز ، وقضى بقية أيامه

على مضايقة هؤلاء الأعراب بالتقرب منهم والمحاملة معهم والإصهار إليهم حتى مات ستة أربع وخمسين وأربعائة .

ووبيع من بعده لابنه تميم بن المعز محاول أن يدرك شيئاً من العرب فغلبوه على أمره وحاصروه في الدائرة الصيقة التي تركها له والده ، فلم يكن له إلا ما ضمه السور من سوسة على ساحل البحر إلى قاس ؛ ولما تمت الغلبة للقوم على الصهاجيين مصت جموعهم في طريقها تأتي على الصواحي والأمصار وبلاد الزاب ، فاصطدموا في ذلك بقبائل رامة وأحلافهم من الربر ، وكانت رامة كالهلالين في شراسة البداوة وصرامة الطباع وشدة البأس والتمرس بأساليب الحرب ، فصاحوا بالهلالين صياح حنود وحثت لجمود ، وحرر صاحب تلمسان من بني خرر لملقاتهم بقيادة وريره وقائده أبي سعدى خليفة ، فكانت بينهم حروب ووقائع انتصر فيها الهلاليون وقتلوا أبا سعدى بنواحي الزاب ، وبسطوا سلطانهم على الصواحي من جميع الجهات ، وعمرت رامة عن مدافعتهم فصالحوهم عليها واستكانوا لبطشهم

## ديب النزاع والحلاف :

ولم يكن هؤلاء الأعراب عندهم الاستعداد لباء ملك مستقل ولا فيهم الميل إلى توطيد دولة متماسكة لها شخصيتها ولها طابعها، ولكنهم كما قلنا كانوا أهل بدواة وشراسة، فطلوا يقيمون بالصواحي ويتمقلون بين المراع والمشاتي يقطعون الطرق ويعسدون السائلة ويقعدون للموك أمر يرقية والمعر بالمرصد ويأخذون منهم الأتاوات على التصرف في أوطانهم كما يقول ابن خلدون ، وقد ظلوا هكذا يتدافعون مع القبائل الأخرى على الأمصار ، ويعينون الملوك والولاة في تحقيق أعراضهم ويعصدون الثوار في بيل أطماعهم نظير ما يتقاضوه من الأتاوات والهبات .

ولكن أرايت إلى النار يا كل بعصها بعصاً إذا لم تجد ما تأكله؟! لقد غدا هذا شأن هؤلاء الأعراب، فانهم لم يلبثوا أن أخذوا يتقارعون على البلاد والحلات ، إذ أحد ملوك صحابة وربة يوقعون بينهم ويسلطون بعصم على بعض، ولهلك تدكر مما قدمنا لك أن الحلاف كان مستعراً بين هؤلاء الأعراب أيام كانوا بمصر، وأن الخليفة العاطمي أصلح بينهم حين أرسلهم إلى

أفريقية؛ فكان من الطبيعي أن ينكأ هذا الحلاف القديم وأن يشب أوراها لأدى قدح، وأن يمتد إلى خلاف بين جميع البطون والقبائل تقصى به العصية الدوية . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فأهم كانوا يتماصون على العرول في المواقع وعلى الرياسة والسيطرة، ومن ثم كانوا يختلقون في معاونة الملوك من أصحاب الولايات والإمارات، وكان هؤلاء الملوك والولاة تبينوا هذا الصعف في تماسكهم فدخلوا عليهم من هذه الناحية، فكانوا يحتمون من بعضهم ببعضهم الآخر؛ ولهذا كله استفحل الشقاق والصراع بين هؤلاء الأعراب بعد أن كانوا وحدة تماسكهم الغاية المرموقة ويضمهم الغرض المشترك .

وأكثر من هذا فقد دب الشقاق والصراع بين بطون الاثبيج وهي أقوى بطون الهلاليين وكانت لهم الرئاسة، ولسكهم لم يكادوا يفرغون من قتال صهاحة حتى وقعت الفتنة بينهم ، وذلك أن الحسن بن سرحان وهو من دريد قتل شنانة بن الأحيمر من كرفة غيلة ، فطوت كرفة له على الهائم ، ثم إن أحته الجازية عاضبت روحها ماصى ابن مقرب من قررة ولحقت بأحيها فمنعها منه ، فاجتمعت قررة وكرفة على فتنة الحسن وقومه ، وظهرتهم عياض،

ولم تزل الفتنة قائمة إلى أن قتل الحسن بن سرحان قتله أولاد شبانة بن الأحير وثأروا منه لأبيهم ، ثم كان القلب بعده لدريد على كرفة وقرة وعياض ، وهكذا ظل التناحر بين هذه البطون دواليك .

على هذه الحال لست الهلاليون وإخوانهم في الشقاق على أنفسهم والثورة على الملوك والولاة الذين يحكمون الأمصار ، وعلى هذه الحال لبثت أمريقية في جميع نواحيها وما يتصل بها من بلاد المغرب وهي مسرح للفتنة والثورة ومحال للبراع والبرال مما أدى إلى حراب الملاد والإصرار بالعماد ، وراد في سوء الحال واستفحال الخراب توالى الهجمات الخارجية على الشواطئ وطمع أم المصرانية في أقاليم أمريقية مما يطول شرحه وليس هذا المحث القصير موضع تفصيله .

### ظهور دعوات جديدة :

ولما ظهرت دولة الموحدين وتم لها السلطان على سائر دول المغرب في أواسط القرن السادس للهجرة ، ورحف شيخهم ابن عبد المؤمن على أمريقية ، كانت له مع هؤلاء الأعراب أخبار وأحداث



طويلة . ذلك أنهم عاهدوه على الطاعة والولاء في أول الأمر ، ووفد عليه أمير الأتبيج وحشم لهذا العهد فتلقاها بالإكرام وعقد لها على قومها ، ولكهم عادوا فقصوا طاعة الموحدين وخرجوا على ولائهم ، فمارلهم الموحدون ، فوقف العرب لهم وأثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم كما يقول ابن خلدون ، ولكهم لم يصبروا على الثبات فاستلحقهم الموحدون وعلدوا عليهم وعنمو أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا أساءهم ، فاصطروا إلى الإذعان الموحدين والدخول في دعوتهم ، وأطلق ابن عبد المؤمن أسراهم وأرجع أموالهم ، وجرت بينهم الأمور على الود والتحالف ، وكانوا للموحدين أكثر عون وسد في عزو بلاد الأندلس وتأديب الأقاليم الشائرة عليهم .

ثم كانت فتنة ابن عاية وخروجه على الموحدين ومنازلته لهم في بحاية سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، ثمالت إليه قبائل حشم ورياح وجمهور الأئتح من الهلالين والبحارت ، رعبة إلى الموحدين ، وزل مو عاية في جموعهم إلى قابس وطلدوا إلى الحليفة العباسي بمعداد تجديد العهد لهم بمعدلان عانية وأذن له في حرب الموحدين ، واحتتمعت له قبائل بني سليم وظاهره بعض ولالة الأقاليم ، وخرج ابن عاية في جيوش جرارة من هذه القبائل ، فاستولى على الصواحي

وافتح بلاد الجريد وقفصة وغيرها من المدن، فنهض إليه المصور صاحب الموحدين في جيوش جرارة، فهرمهم ابن عانية في أول الأمر، فعاود المصور الهجوم عليه من ناحية تونس فهزم جموعه هزيمة منكرة وما زال يمعن في تتبعهم حتى شردهم في صحارى رققة، وعادت جموع الهلاليين وإخوانهم إلى الإذعان له والدخول في طاعته، فعمام إلى المغرب الأقصى وأزل حشما ببلاد تامسنا ورياحا بلاد الهبوط، وأبقى رغبة في مكائها من المغرب الأوسط بين مصاب وحمل راشد بعد أن اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتركوا مكائهم الأول نقابس وطرابلس .

### نهاية القوم :

واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها كما يقول ابن خلدون وهم على طبيقتهم في التمارع والتصارع، والأيام تملوهم وتزل، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم حتى انقرض من بطونهم من انقرض وبقي منهم أعقاب وفلول فقدوا شخصيتهم وصاعت سطوتهم، وانطوت في بطون الأيام

وتصارييف الأقدار سيرتهم . سنة الله في سائر خلقه وطبيعة الزمن في معاملة أهله .

وأما بعد ، فهذا مجل لتاريخ أولئك القوم ، أوردناه ليكون أساساً لما نأخذ فيه بعد من دراسة القصص الذي يحكى عنهم والذي يسمر به أهل مصر في ناديم ، وهم لا يعرفون أين من التاريخ حقيقة ، ولا يحسمون أن له أصلاً صحيحاً في حكايته ولكما رى من الوفاء لحق التاريخ ولواجب البحث أن نقول كلمة في النتائج التي تحققت من خروج أولئك العرب إلى أفريقية قبل أن عصى في وجهتها .

### نتائج وآثار :

ومن أجل أن تدف على النتائج والآثار التي حققتها عروبة بني هلال وإحواهم لأفريقية وما يتصل بها من الأقاليم . لا بد من أن نرجع بالطر إلى صلة العرب بتلك البلاد ، وأن نعود إلى تاريخ دخولهم إليها وهو تاريخ طويل يمتد إلى صدر الإسلام ، إذ استطاع القائد الإسلامي العظيم عقبة بن نافع أن ينتزعها من تحت الروم ، وأن يخلص القنائل البربرية التي تقطعها لحكم الإسلام ، وأن

يؤسس مدينة القيروان في سنة خمسين للهجرة ، ولكن هذه الغزوة التي قام بها عقبة لم تكن في الواقع كافية لتوطيد سلطان العرب على جميع الأقاليم ، ولم تكن حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ تلك البلاد ، إذ ظلت أهم المدن والحواصر الحصينة في يد الروم ، وظل البربر يهاصون الفاتحين في مناسبات عديدة حتى اضطر زهير بن قيس حليلة عقبة إلى التمهقر أمامهم ، فلما جاء من بعده حسان بن النعمان استطاع في عام تسع وسبعين للهجرة أن يخضع البربر لسلطانه ، وأن ينتزع جميع الحواضر من يد الروم حتى قرطاجنة العظيمة .

وقد ظلت أفريقية منذ الفتح ولاية يرعى شئونها عامل مصر ويقوم بتدبيرها فيما يقوم به من الأعمال ، فلما كان عام ستة وثمانين للهجرة صارت ولاية قائمة نفسها ولي عليها موسى بن نصير من قبل الخليفة في دمشق ، على أن تلك البلاد ظلت مسرحاً للتنازع والثورات العنيفة التي ترعرع أمامها سلطان العرب ، وفي عهد الخليفة المنصور العباسي حاول العرب توطيد سلطانهم مرة أخرى في أفريقية فمجدت المحاولة إلى حد ما ، ثم قامت دولة الأغالبة وبسطت سودها على الإمارات والأقاليم ، ولكن هذه

الدولة لم تكن تابعة للعاسيين إلا اسماً فقط ، مم كانت الدعوة العاطمية الحارفة ، قد العاطميون سلاطهم على سائر أنحاء أفريقية وأقاليمها ، فلما انتقلوا إلى مصر أقاموا علمها والياً من قلمهم وتوطدت صلتهم بها على هذا الوضع حتى خرج ذلك الوالى عليهم وانحاز إلى الخلافة العاسية وحطب للخليفة العاسى فى دمشق ؛ فكان أن أرسلوا منى هلال وإخوانهم لإحصاع ذلك الوالى وإعادة هيبتهم فى تلك البلاد على ما مر بك من قبل .

فأنت ترى من هذا العرض التاريخى الموحى أن بلاد أفريقية وما يتصل بها من الأقاليم ظلت عهداً طويلاً ميداناً للغزو والفتح ، وأن صلة العرب بهذه البلاد ظلت عند وضع محدود مقدر ، وأن سلاطهم عليها بقى مرعراً يتراوح بين الاستقرار والتقلص ، وأن القبائل الدررية التى كانت تقطن تلك البلاد بقيت قوية الشوكة واسعة الصولة راححة بدها وعصبيتها . فلما تمت رحلة عرب الهلالية وإخوانهم إلى تلك البلاد وحرى ما حرى من حروبهم فيها وقراهم عليها ، كان لذلك آثار واضحة فى تغيير الوضع السابق والاتجاه بالحياة هناك إلى وضع جديد له مظاهره وحصائصه ، وكان من أثر هذه الآثار أن رادت نسبة العرب على نسبة الدرر من

السكان الأصليين ، وأن استعربت تلك البلاد استعراياً إن لم يكن كاملاً فهو أقرب إلى السكال، حتى لقد فقد البر كثيرًا من مميزات شخصيتهم وقوميتهم تحت تأثير شخصية أولئك الأعراب القوية وهو ذم الواسع ، فهجروا لغتهم ولهجاتهم تدريجاً وفقدوا أيضاً اسمهم القديم كما تقول دائرة المعارف الإسلامية .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شراسة أولئك البر قد خدت تحت صغط أولئك الأعراب وسيطرتهم حتى استطاعوا أن يتغللوا على قبيلتي رباة وصهاحة العريقتين اللتين كانتا تسودان الصحراء العربية في القرون الأولى للهجرة، واللّتين كانتا العقبة في طريق الفتح الإسلامي لتلك البلاد، فأخضعوهما لسلطانهم وفرضوا عليهما الحزبة والأتاوات، ومن ثم أصبحت كلمة صهاحي مرادفة تقريباً لكلمة عبد أو رقيق<sup>(١)</sup> . ومن ثم سميّ أن يقول إن استعرب الأقطار المعروفة الآن بشمال أفريقيا مديس في وحوده لغزوة الهلاليين ، ولولا هذه القروة لبقى المجلس البربري هو المسيطر على تلك البلاد بعاداته وتقاليده وهو ذم وسيطرته .

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية للمادة الخاصة بالبر

على أن دخول بني هلال إلى بلاد أفريقية وإن غير فيها وضع الحياة من هذه الناحية، فإنه لا شك قد حفظها من ناحية أخرى هي ناحية الروح والمظهر. ذلك لأن البربر الذين كانوا يقطنون تلك البلاد من قديم إيمانهم كانوا قبائل يحيون حياة البدو في الأخذ بأوضاع العيش وأساليب الحكم والعمران؛ ولقد عاشوا طول حياتهم متألمين على أوضاع الحصار الطارئة عليهم سواء على يد الروم أو المفتح الإسلامي من بعد، فكان دخول العرب الهلالية إلى تلك البلاد امتداداً لهذه الروح واستمراراً لهذا الوضع، ولقد ظلت هذه الروح المدوية مسيطرة على تلك الأقطار آماداً طويلة، ولا تزال آثارها باقية واضحة إلى هذه الأيام في الأقاليم والسهول والهضاب والصحارى التي تكتنفها، ولقد كانت هذه الصبغة المدوية التي تميز عليها القبائل التي هلك إلى الآن والتي تشيع فيها النخوة العربية والنعرة المدوية هي الصخرة التي ارتطم بها الاستعمار الفرنسي ثم الاستعمار الإيطالي من بعد... إذ وقعت تلك القبائل السنين الطويلة تحمل سلاحها في وجه الاستعمار العاشم، تأني الخضر والإذعان، وتؤثر الموت والتشريد على حياة الدل والاستعداد، وليست مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري

لفرنسا ومحاهدة الشهيد عمر المختار لإيطاليا إلا مظهراً لتلك  
 النخوة البدوية التي سيطرت على تلك البلاد قروناً طويلة  
 وامتدت فيها متسلسلة من قبائل البربر إلى قبائل بني هلال .  
 وهناك أثر آخر لدخول بني هلال وإحواضهم إلى أفريقية، وهو  
 معنثه أثر نفساني كان نتيجة تلك الحروب الدموية التي طالت  
 بين هؤلاء الأعراب وبين سكان تلك البلاد، وما أدت إليه من  
 ضروب القوة والعنف وفنون الهب والسلب، ثم ما صغت به  
 الحياة في نفوس أولئك الناس من الخروج على الأوصاع والاستهانة  
 بالحدود والرواجر، فكان ذلك مما دعا إلى ظهور كثير من أصحاب  
 الدعوات الدينية أو التي تلبس لباس الدين، يدعون دعوتهم إلى  
 الإبانة والأحدا يرون من التمايم المقدمة، وإبهم ليجدون فيما  
 يتفشى في الحياة القائمة من صروب الظلم واستحكام الجهل  
 ذريعة لهم وشعاراً لدعوتهم، ولقد كثر عدد هؤلاء وتنازع في  
 ألوان وأساليب تنمق في أصولها وإن احتلت في تفاصيلها، ولو  
 أن مؤرخاً أراد أن يسطر تاريخ هؤلاء الدعاة وما كان لدعواتهم  
 من أثر وما قامت عليه من الأسماء والمسلمات، لكتب في  
 ذلك تاريخاً حافلاً ولوجد مادة واسعة للافاضة لا يجدها على هذا



الوضع في ناحية أخرى في تاريخ الأفطار الإسلامية ، ومن العجب أن أصحاب تلك الدعوات كانوا يجمعون الأنصار ويجندون من حولهم الأعوان ، وكثيراً ما كانت تتمشى دعواتهم ودعاياتهم ثم يصيرون هم الآخرون مصدر عنف وظلم ولون من الحياة القائمة لا يختلف إلا في اسمه ولمظه .

وهنا لابد من وقعة قصيرة ، فإن جميع المؤرخين الذين أشاروا إلى غزو الهلاليين لأفريقية قد شنعوا على القوم بما اقترفوا من صروب السلب والهب ، واتهموهم بالغلظة والفسوة فيما اجتروحوا من فنون الفساد والفتك ، حتى ابن خلدون الذي حمل بأخبارهم وأثنى على بطولتهم شنع عليهم بهذه التهمة في غير موضع ، وقد وصفهم أحد المؤرخين المعاصرين بأنهم كانوا جنداً همجاً لا يخاف الله ولا يحترم المخلوق . والواقع أن هؤلاء الأعراب كانوا لا يبقون على شيء في طريقهم كما قلنا من قبل ، وقد سهبوا المدائن والزروع والثمار ولسكنا نستطيع أن نلتمس لهم في ذلك علة تدبر هذا العمل أو على الأقل توضح الدافع لهم على هذا العبث وذلك الفساد . ذلك لأن هؤلاء الأعراب قد رحلوا إلى أفريقية

كجند طارق بن زياد حين فتح الأندلس، ليس لهم من القوت والعتاد إلا مايستخلصونه من أيدي العدو.. فلاجل أن تأكل هذه الجحافل الكبيرة، ولأجل أن تجد من العتاد ما يعينها على الفتح، كان لابد أن يعمدوا إلى ما عمدوا إليه من الإتيان على كل ما تصل إليه أيديهم .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نعرف أن هؤلاء الأعراب قد نشأوا على البداوة ودرحوا على الخشونة، وكانت حياتهم في مجد وفي مصر حياة رحلة وانتقال وإعارة وسلب، فلم تكن المدن والزرع في نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها في نفوس أهل الحضر الذين استطابوا العيش في طلالها والإقامة في رحابها، وكان في هؤلاء الأعراب قد أرادوا بصنعهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحصارة في تلك البلاد وأن يطعموها بطائهم وأن يخاعوا عليها مظهر بداوتهم الذي يؤثرونه لا الذي يؤثره غيرهم، حتى لا تكون فيما بعد واحة طامع أو مقصد فاتح، وحتى لا يرجع الخليعة الفاطمي فيستخلصها منهم حبا في خيراتها وحرصا على ثمارها وعمراها . على أن هناك ناحية في التعليل من الوحة النفسية لا يصح أن نعملها في هذا المقام، وهي ناحية لا تتصل هؤلاء الأعراب

وحدهم ولكنها شاملة لجميع القبائل البدوية ، فإننا إذا ما رحنا إلى التاريخ نجد جميع هذه القبائل كانت في فتوحاتها وفي غزواتها ترك العسف والشطط ، وتسلك طريق الهب والعتك ، وتأتى على معالم الحصار في كل مكان تنزل به ، كأهم بهذا يشبعون غريزة مكبوتة في نفوسهم ، ويرضون بهذا التشنى من أولئك الحصريين الذين اعتروا عليهم بوفرة العيم وتعالوا عنهم بما يملكون من منافع الحياة ، ولم يشذ عن هذا إلا عرب الفتح الإسلاميون ، لأنهم وجدوا في تعاليم الدين رادعا يردعهم عن اقتراف هذا المسكر وقد كانوا في غروهم مبشرين بالدين أكثر منهم طامعين في التسلط على عيهم

أدبا لا نقصد بهذا دفاعا عن الحرية وسياسة التحريب ، ولكننا أردنا أن نكشف عن الباعث الذي حمل القوم على صنيعهم من الوجهة التاريخية ، وأن ندل على أنهم ما حروا في هذا إلا على سة أمثالهم من القبائل البدوية ، فمن الإسراف أن يلعبهم المؤرحو بهذا الصنيع ، وأن يشنعوا عليهم بهذه الفعلة ، وأن يطلقوا القول في ذلك اطلاقاً من غير تبرير ولا تعليل .

## الفصل الثانى

كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت ؟

نشأة القصص الإسلامى :

فى حكاية سيف الملوكة وبديعة الحمال من ألف ليلة وليلة «أن مملوك التاجر حسن عند ما أراد أن يهرب دمشق رأى شاباً يجرى وهو يمتثر بأذياله فقال له : مانالك تجرى وأنت مكروب ، وإلى أين تقصد؟ فقال الشاب: هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسي فى مثل هذا الوقت يحدث حكايات وأخباراً، ويروى أسماراً ملاحاً لم يسمع أحد مثاهاً، وأنا أنجرى حتى أدرك موصعاً قريباً منه، لأنى أخاف أن لا أحد ذلك من كثرة الخلق . فقال المملوك له . خدى معك فقال الهى : أسرع فى مشيتك . فأغاق المملوك بانه وأسرع فى السير معه حتى وصل إلى الموضع الذى يحدث فيه الشيخ بين الناس ، فرأى شيخاً صديقاً الروح يجلس على كرسي يحدث الناس ، فيجلس قريباً منه ، وأصغى ليسمع حديثه ، فلما جاء وقت العروب فرع الشيخ من الحديث وانص الحاس .. »

وإنما أوردنا هذه الحكاية لأنها تصوير صادق لحال المجتمع الإسلامي وبخاصة في العراق ومصر ، بعد أن سقطت المهمة واحلت العزائم وخضدت شوكة الخلافة مما مبيت به من شرور العتق ومآثم الكيد ومطامع الخارجين ، ولعل من المعروف أن القصص كان أداة استغلتها السياسة الإسلامية منذ فجر الاسلام في الدعاية والترويح والعص والتشجيع ، ويقولون إن معاوية ابن أبى سفيان كان أول من أخذ بهذا السبيل ، فكان أول من ولى رجلا على القصص واهتم بشأه . ولقد روى ابن أبى الحديد عن حمير محمد بن على الباقر أنه قال : « لم يرل أهل البيت استذل ونستضام ، ونقصى وتمتن ، ومحرم وقتل ، ومحاف ولا بأمن على دمانا ودماء أوليانا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موصعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال الشر في كل بلدة مخدثوم الأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عما مالم نقله ولم فعله لينفصونا الى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . . . »

ومهما يكن من شيء ، فإن القصص في زمن معاوية وإلى عهد من بعده ظل يجرى في دائرة الدين وما يتصل بمناقب الرجال

ومثالهم، ثم لم يلبث ان ظهر القصص الأدبي، فكان الرواة يتلقفونه من أهل البادية، ويحدثون به عند الحلاء والولاء وفي مجلس الخاصة، فلما كان النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة، وكانت عوامل الاحلال قد تسربت إلى المجتمع الإسلامي وإلى جسم الدولة تحول القصص إلى أداة لهو وترجية فراع، وصار القصص يتاجرون به بضاعة رابحة رائجة عند العامة، حتى لقد كانوا يجلسون للتحدث به على قارعة الطريق؛ وإليك لتستطيع أن تتصور حقيقة هذه الحال فيما رواه الطبري في حوادث سنة ٢٧٤ للهجرة إذ يقول: « وقد تقدم الخليفة المعتمد إلى العامة يلزوم أعمالهم وترك الاجتماع والعصية ومنع القصص من القعود في الطرقات على جانبي بغداد . . . » .

### المجتمع المصري والقصة :

إلى هذا الوضع تحول القصص في المجتمع الإسلامي، وعلى هذا الوضع انتشر القصص في العواصم والأمصار يحدثون العامة ويحكون لهم ويشعون رعاتهم بالتزويد والتهويل والاحتلاق والتطويل، ولقد امتازت مصر في ذلك بالمكان الأول وبخاصة

في القرن الرابع عند ما تم الحكم فيها للعاطميين ، إذ أقام هؤلاء الدعاة الدهاة حكمهم بالدعاية أكثر مما أقاموه بالسيف ، ومهدوا الطريق إليه بالترغيب أكثر مما مهدوه بالعمس ، وكانوا من ذلك عند خطة مرسومة وطريقة ناعمة تمتلك نفوس العامة وتستمويههم فدخلوا عليهم بالقصص فيما يتصل بالحرب والسياسة والدين والحلافة والأساطير والخرافات ، وكان القصاص الحكوميون يجتهدون في وضع الأحبار والأصهار ، والنصاص الشعبيون يسايرونهم في هذا الوصف ويحارونهم على هذا المسح ، والمصريون كما يقول ، الأستاذ الزيات : « سكان قطر رراعى مالموم الرقة مقصل العارة يحود الخير الكثير على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلي الأسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر » ، ومن ثم لم يمس إلا قليل حتى استطاع أولئك العاطميون الطارئون على البلاد أن يصنفوا المجتمع المصري بصفتهم ، وأن يكيّفوه على عايتهم ، وأن يخرجه صورة مطابقة لظاهر دعوتهم ودعايتهم ، فكانت القاهرة أشبه بالسامر العامر ، كل يوم عند موسم حديد ومهرجان حادث وقصص يروى وأحاديث تشاع ، والناس في الأندية والمحاسن يقبلون على هذا متلفين ، وبنق بلديه متبهجين

مطمئنين ، ينحدر إليهم من أفواه القصاص سمرّاً شهيماً ممتعاً ، ثم يرددونه عنهم ، وفيه ما فيه من التزيد والإغراق .

ولقد ظلت هذه الصنعة هي طابع المجتمع المصرى في العهود التي توالى بعد العاطميين ، ولا تزال بعض ألوانها إلى اليوم تبدو مقبولة محمودة وإن كانت محصورة في طبقات خاصة ، ولقد كان من الطبيعى أن يتمير القاص المصرى في هذا المجتمع الحبيب ، وأن يكون محصوله في ذلك وافرّاً وتناحه وافياً ، فكان أرز وأوى من إحدى هذه الناحية ، وما « ألف ليلة وليلة » و « قصة الهلالية » و « قصة الظاهر بيبرس » و « قصة سيف بن دى يرن » وغيرها من القصص ، إلا من فيص راعة القصاص المصريين وقدرتهم على التحليل والإفاضة ، سواء ما انتدعوه منها انتداعاً أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاحتراع والاحتلاق . وإذا كان هؤلاء القصاص قد تناولوا « ألف ليلة وليلة » أصلاً عن الفارسية مدواً في فروعه وأساساً ارتفعوا بسائمه ، فاهم كذلك في قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخى ، وأحدوها مما جرى في رحلة أولئك الأعراب إلى مصر ، ثم إلى بلاد أفريقية ، وما وقع لهم من الحروب والأحداث ، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخى إلى ميدان الخيال المسيح ، ولقد



ظلوا على طول السنين حتى اليوم يمدون فيه ويزيدون عليه  
ويشتقون منه، حتى كانت تلك القصة الطويلة التي راها متداولة  
مدونة في المطبوعات الرحيصة، والتي يستوعبها أكثر العامة من  
أنباء مصر، وبخاصة في القرى والأقاليم، وإنها لمظهر امتيازهم  
وأوضح أثر ثقافى عندهم وأبعد سلطان على قلوبهم وعقولهم.

### فى أى عصر وضعت القصة الهلالية ومن الذى وضعها ؟

وأول ما يعن لنا ونحن بصدد الدراسة لهذه القصة أن نسأل  
على عادة المباحثين: فى أى زمن وضعت ومن الذى وضعها ؟ ولقد  
أشار كلوت بك فى الجزء الثانى من كتابه «لحة عامة إلى مصر»  
إشارة عارة إلى شعف المصرين بسماع هذه القصص وانقطاع  
الرواة للحديث بها وبعد أن أورد شيئاً مما تحكيه القصة عن  
أبى ريد الهلالي قال : والمعهوم أن قصة أبى ريد هذه كتبت فى  
القرن العاشر من الميلاد المسيحى . . .

ولكن هذا « المعهوم » الذى أوردته كلوت بك مورد التسليم  
فى التعيين للزمن الذى وضعت فيه هذه القصة، لا يتفق وما تقرره  
الحقيقة التاريخية فى شأنها. لأن رحلة أبى هلال الثانية إلى أفريقيا

كانت في القرن الحادى عشر للميلاد ، وهذه الرحلة هى التى قام عليها هذا القصص وأوحت إلى القصاص بما أفاضوا فيه من غرائب الوقائع والأخطار ، وإلى الشعراء بما تغنوا به من الأعالى والأشعار<sup>(١)</sup> ، واذكر هذه المناسبة أن طالباً توجه إلى إحدى المحلات العلمية في مصر بالسؤال عن العهد الذى وضعت فيه قصة أنى ريد الهلالى، فأجابت بأن هذه القصة كانت شائعة في القرن الثامن للهجرة أما الزمن الذى وضعت فيه فيظهر أنه بين أوائل القرن الخامس وأوائل الثامن ، فاعجب لهذا التعيين العلمى الذى تقدر فيه مسافة الحصر ثلاثة قرون كأنه حصر العلماء للزمن الذى وجدت فيه الدنيا وتم فيه ظهور الكواكب والأفلاك والسماء والأرض . . . .

حقاً إن القصة كانت شائعة لعهد ابن خلدون، وأنا أرى أنها في ذلك العهد كانت قد استوفت تفاصيلها واستكملت أجزائها ، وقد أشار ابن خلدون نفسه فيما ذكره عن هذه القصة إلى أن بطون بنى هلال كانوا يتماثلونها حلماً عن ساف وحيلاً بعد حيل، أنى أنها درجت على الألسن حتى عهده آماداً طويلة وأحياناً

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابو زيد الهلالى »

متعاقبة . وعندى أن وضع هذه القصة إنما يرجع إلى حقيقتها الواقعية ووضعها من التاريخ . ذلك لأن الهلايين وإخوانهم حين رحلوا إلى أفريقيا إنما رحلوا لأمر بهم المصريين حكومة وشعماً ، وكان من الطبيعي أن يكونوا دائماً حريصين على تسقط أخبارهم وإذاعة انتصاراتهم ، يتحدثون بذلك في أنديتهم ومحالهم ويتناقضونه بالرواية والحكاية ويزيدون فيه بالتهويل والإعراق على ما يرضى رعباتهم وبشع شهواتهم في مثل ما ترى بيننا اليوم من التهويل بأخبار الحرب واختلاق القصص المثيرة عن وقائعها ، بل لقد كان المجتمع المصرى في ذلك الوقت أحصص في هذه الناحية على ما قدمت لك ، ولم تكن ثمة مصادر رسمية يرجع إليها في تعرف الأخبار كما هو قائم بيننا الآن من الرجوع إلى الصحف وشركات الأنباء وبلاعات الجهات المسئولة

قصة من وضع العصور وحقائق العقيدة المصرية .

نشأت إذن القصة الهلالية ممسأة حقيقتها من التاريخ . ودرج بها حيال القصص والمحدثين في السمر والإفاضة على الوصف

الطبيعى . تطول وتتطاوّل الأيام وتهول في راعة القصاص بما يشع لهمة السامعين ويشع عواطفهم من تصوير للشل الأعلى في البطولة وأهوال المعارك العنيفة ومغامرات الحب البارعة وتسقط الحيل العجيبة . ولا شك أن نبي هلال وسليم كانوا طرفاً مشاركاً في نمو القصة والتهويل بحقيقتها التاريخية ، إذ كانوا يتحدثون بما لهم من الأحبار والوقائع في مقام الفخر والاعتزاز وهو مقام يدعوهم إلى المبالغة ويقتضيهم الإغراق ؛ وكانوا يتناقلون ذلك حياءً عن جيل ويخلعون عليه من التريد ما يكون عادة في تناقل الحديث ، والقصاص يروون هذا عنهم وفيه تزيدهم أيضاً ؛ وهكذا كانت القصة من تزيد الطرفين وتهويل الحاسين ، وهكذا كانت أيضاً إنعكاساً لأحاسيس أولئك وهؤلاء . وتصورهم وابعالهم بما يلائم الحياة التي يحيونها والوسط الذي يعيشون فيه . وإذن فليست القصة من وضع واضع بعينه أو شخص مبرده . ولكيها من وضع الأجيال وخلق العصور المتتالية ، والظواهر أنها كانت في نأدي الأمر حديثاً مشاعاً يتحدث بها الناس كما قلت في أيديهم ومحالهم ، ثم استأثر بها القصاص بقوة راعتهم في الخلق والتريد واحتكرتها

طائفة خاصة للتكسب من الحديث بها على نحو ما هو ناق إلى أيامنا الحاضرة .

على أن هذه القصة وإن كانت قد وضعت في مصر واستوفت تفاصيلها من حلق العبقريّة المصريّة و راعة القصص المصري ، فإنها قد عبرت إلى الأقطار العربيّة الأخرى وشاعت عند طبقاتها و خاصة في شمال أفريقيّة . ذلك لأن تلك البلاد كانت مسرحاً للحقيقة التاريخيّة لهذه القصة ، وقد صارت صلة الهلايين وإحواهم بها أقوى وأشد ، كما كان التواصل بينها وبين مصر قوياً مكيناً ، وإن هذه القصة لتروى إلى اليوم في تلك البلاد وفي غيرها وفيها الأثر المصري واصح ملموس ، إذ تحكي بلغة يشيع فيها كثير من الألفاظ المصريّة الدارجة والتعابير السائدة في لغتنا العامية ، مما يدل على أنها وفدت عليهم من مصر أصولها وتفاصيلها ، وإن القصص هناك ليتحدثون بها في المجتمعات كما يحدث « الشعراء » عندما في مقاهي القاهرة وعلى « مصاطب » القرى في الريف ، لا يحتفلون إلا أنهم في مصر يختصون الليل بهذا الحديث بعد أن يهرع السامعون من أعمالهم ، وهناك يقصرون الحديث على ساعتين قبل الغروب ثم يتمرقون قبل أن يهبط عليهم الظلام .

### القصة والحقيقة التاريخية :

والقصة في وضعها تنسق مع الوضع التاريخي وتحري في تسلسل حوادثها على عراره ، إلا أن وضعها بالرواية وعموها بالتساقل قد أثر في تفاصيلها وحوادثها العرعة بالاضطراب تأثيراً واضحاً ، فأنت لا تجد ثمة أصلاً صحيحاً تتفق كل الروايات عليه في ذكر الوقائع وتقف عنده في الأسلوب ، لا في الكتب المطبوعة ولا في الأحاديث الشائعة ، وإما هي رسوم إن اتفقت في دلالتها فهي تختلف أشد الاختلاف في روايتها وتفاصيلها ، كما هو الشأن في كل قصص شعبي لا تحده أوضاع علمية واسكنه يجرى متموجاً ويعبض في مثل عواطف الشعب وانعالاته .

### ملخص وقائع القصة :

ولو أننا أردنا أن نقدم للقارئ ملخصاً وافياً بما اشتملت عليه قصة بني هلال وإخوانهم من أروع الوقائع وأروع الحيل وعرب الحوادث وطريف المواد — لماض ذلك عن المقام المحدود ، ولزاد على الشرط في هذا المبحث الموحى . فحسبنا هذا أن نورد

من ذلك مما يكفى فى الإفادة لما تأخذ به من دراسة القصة وشرح مظاهرها الفنية وخصائصها القصصية . وقد أورد الدكتور فؤاد حسين موحراً لهذه القصة فى مقال له ، مجلة الثقافة . وعلى أنه موحز دقيق فإنه واف بالغرض . ولا بأس من أن يعتمد عليه فى ذلك مع ما يقتضيه المقام من الحذف والإضافة ، قال الدكتور الماحث .

« نستطيع أن نقسم قصة نبي هلال إلى ثلاث سلمات : الحلقة الأولى وهى التى تروى تاريخ ظهورهم فى شبه الجزيرة العربية حتى استيطانهم بلاد «السرو» ، والحلقة الثانية وهى تحدثنا عن رحلتهم إلى بلاد نجد ، ثم الحلقة الثالثة ويطلق عليها تعريفة نبي هلال وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب » .

### الحلقة الأولى :

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحديث عن نبي هلال ونسبهم ودرجتهم ، وهى تقول : إن هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبى أسكنه وادى العماس . وقد اشتهر هلال هدا بالشجاعة

والكرم، وورق بولد سماه المنذر، ولم يكذ المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وحذق العروسية والقيام بأعمال السلب والنهب، ثم تعرف إلى الأمير « مهذب » وتزوج بإمته « هدا » ولما مضى على زواجهما عشر سنوات ولم يجب مها قرر الزواج ثانية فرحل إلى بلاد « السرو وعبادة » حيث تروج بإسة الملك الصالح « عدنا »، وهنا تأتى الفصة بمماجة قصصية غريبة فتحدثنا بأن روجه الألى « هدا » أنحمت له « جاراً » بعد ذلك العقم الطويل، كما أن « عدنا » أنحمت « حبيراً »، ولكن لم تلتث الفيرة أن دت بين الاثنين مما أدى إلى نزاع عنيف فى الأسرة انتهى بطلاق « عدنا » ورحيلها مع انها « حبير » إلى محد . ومن درية « جار » و « حبير » رجالات بنى هلال و بطوهم الذين يمثلون أدوار المطولة فى القصة وتحكى عنهم حوادثها ووقائعها، فخار ولد له عامر وتامر وهشام وحارم ومن نسل هؤلاء « ورق » والد أنى ريد وسرحان والد السلطان حسن أما « حبير » فتد ولد له رياح وحصل والعمان . ومن درية رياح دياب بن عامر ثم تنتقل القصة إلى الحديث عن « رزق » والد « أوزيد » فتذكر أنه كان أميراً من أمراء العرب ، وأنه كان مزواجاً تروج



من عشر نساء فلم يجب من واحدة منهن إلا ولد آليس له ذراعان ولا ساقان، فتزوج بامرأة تسمى « خصرء » فرزقت منه بقتاة تدعى « شيعا » ثم حملت بعلام هو « أنوريد » . ولما كانت في شهور الحمل خرجت للتنزه مع جارتها فرأت طيراً أسود اللون انتفض على سرب من الطيور الأخرى فقتل بعضها وشتت بعضها الآخر، فتصرعت « خصرء » إلى الله أن يررقها بعلام يكون كذلك الطير في قوته وشدة نأسه ولو جاء أسود اللون، فاستجاب الله دعوتها — وولدت العلام على ما تصرعت به إلى الله — فلما كان اليوم السابع لميلاده ، أقام والده وليمة كبيرة دعا إليها أمراء العرب ثم قدم لهم العلام فما كادوا يرون سواد لونه حتى هالهم الأمر ، وطمسوا من والده أن يطلق « خصرء » لأنها جاءت بولد لا يشبهه ، فلا بد أن تكون خاتمه فيه ، فطابقها على الرغم من حبه لها وتعلقه بولده . وانتهى الأمر برحيلها هي وابنها إلى الأمير الزحلان عدو بني هلال . فقصت عليه قصتها فأكرم وفادتها وهدأ من روعها وتعهدا ولدها بالرعاية الكريمة ، وعهد بتربة العلام إلى مؤدب أولاده ، حتى إذا شب العلام بدت عليه شمائل النجابة والقوة وشدة البأس ، وأوانع ألعاب العروسية

وركوب الحيل ، وابتدأ يحارب القنائل المعادية . فأظهر من ضروب  
 الدسالة ما طار بدكره ، ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير  
 الزحلان فهض إليهم « ركات » وهجم على والده وأخذ أسيراً وهم  
 يقتله لولا أن والدته أطلعتة على حقيقة الأمر ، وكان هذا ابتداء  
 التعارف بين الأب والابن . أما الأمير الزحلان فقد أعجب به  
 وزوجه بامنته « عصن البان » ، ومن يوم تلك الواقعة سمي « سلامه »  
 إشارة إلى سلامة القوم على يديه وكسوه « بأبي ريد الهلالى »  
 اعتزازاً بريادته على الفرسا فى الحرب . وندسبه فى بنى هلال  
 بعد أن تمت المعرفة بينه وبين والده .

وبعد أن تفرغ القصة من الحديث على حروب الهلايين مع  
 الأمير الزحلان وأخبار ررق واسه « أبوزيد » تنتقل إلى  
 الحديث عن سرحان والد السلطان « حسن » ، فقد ذكر خبر تعرفه  
 « شما » ، ثم ما كان من وقوعها فى أسر الإفريج ومحاتها بحيلة لطيفة ،  
 ثم تنتهى الحلقة الأولى من القصة بكلام طويل عن حروب ووقائع  
 الهلايين فى اليمن والهند لا يتقيد فيه خيال القصاصى بمراعاة  
 التاريخ أو الدقة فى معرفة البلدان ، ولكنه حيال شارد  
 لا يطلب إلا العرائب والعجائب التى تستهوى العامة .

## الحلقة الثانية :

وتأتى بعد ذلك الحلقة الثانية من القصة ، متبدأ بالحديث عن  
 حلة الهلاليين من ملاد « السرو وعبادة » إلى مجد الخصرء  
 حيث كانت تعيش قبيلة رغة وذرية حير . أعى قبيلة الأمير  
 ام وابه دياب، وتقول القصة : إن هذه الرحلة كانت من حراء  
 قحط المالحق الذى نزل ببلاد « السرو » مما اضطر القوم إلى البحث  
 عن مكان ينتجعونه فقصدهوا إلى مجد ليعيشوا مع أقارهم ، وكانت  
 حلة عبيمة ، إذ اصطدم الهلاليون فى طريقهم بيهود حير ووقعت  
 بينهم حروب طاحنة تمت بانتصار الهلاليين . على أن إقامتهم فى  
 مد لم تكن أهدأ ، إذ حارب الهلاليون العقيلي جابر والهدبي  
 غيرهما من الأمراء والأشداء والقبائل المحاورة مما تحدثت عنه  
 قصة طويلا ووصفته أروع وصف وأندعه ، وتذكر القصة أن  
 سلطان حسن تروج فى مجد « سائلة » أحت دياب ابن عام  
 مد أن وعده بأحقه « نور بارق » التى تعرف بالجارية ولكه  
 يحقق معه هذا الوعد وروجها لشريف مكة . وهد أن تتحدث

القصة عن بطولة الهلالين وحروبهم مع القنائل تشير إلى رحلتهم عن مجد ، وهذا تنتهي الحلقة الثانية .

### الحلقة الثالثة :

أما الحلقة الثالثة فهي التي تعرف بقصة الريادة أو تغريبة بني هلال ، وهي أحمل حلقات القصة بالحروب والأهوال والعرائب والعجائب ، وهي مدار حديث القصاص غالباً فيما يتحدثون به إلى الناس في المحاسن العامة . ولا تحمل القصة في ابتداء هذه الحلقة بما كان من زول القوم أرض مصر . وقد يمر بعضها بذلك مروراً عاراً ، ثم تأخذ في الحديث عما كان من رحلة الهلالين إلى تونس الحصراء بسبب القحط الذي حل بأرض مجد فأصر بالإبل والحيل وهدد بالجوع والجوع والهلاك ، ففكر القوم في الرحلة إلى بلاد العرب لما سمعوه عن حيراتها الكثيرة ورروعها البصرة ، وهما تبدو القصة رائعة ممتعة ، فهي تذكر أن القوم لم يتهموا في القيام بهذه الرحلة ، ولكنهم فكروا فيها طويلاً وأمعنوا في التدبير لمحاكماتها وتحقيق الغرض منها ، فاتفق رأيهم في ذلك على إرسال بعثة للتجسس وإرتياد الحال في بلاد المغرب ومعرفة ما عدا أهلها

من الاستعداد للدفاع عنها، وقد تألفت هذه البعثة من ثلاثة فتيان من حيرة أناء الهلالية جاهاً وشاباً وحالا وشجاعة ، وهم مرعى ويحى وبونس وعلى رأسهم أنوريد الهلالي نفسه متكرراً فى زى عبد تابع لهم ، وخرج أنوريد والعتيان الثلاثة لقصدهم بعد أن ودعهم العرب وعلى رأسهم السلطان حسن وداعاً حاراً يفيض بالعواطف الأنوية الصادقة . وسارت معهم (شبيحا) أخت أنى ريد مسافة طويلة . وهى تبدل لهم المصح بالحيلة والحدرد والصبر على ما يصادهم من الصعاب والعقبات ، وتبكي بكاء مرأ على مراقهم حتى نهرها أنوريد وأمرها بالرحوع عنهم ، ثم تأخذ القصة فى الحديث عن سر هذه البعثة وكيف وقع أعضاؤها جميعاً فى قبضة العدو، وكيف استطاع أنوريد أن يخرج بالحيلة وأن يعود إلى الهلاليين وإحواهم ويحرهم بما كان من أمرهم والظاهر أن قصة الريادة هذه ترجع فى حقيقتها التاريخية إلى ما قدمناه فى خبر مؤسس بن يحى أمير رياح وموقعه من القوم حين أرادوا مهاجمة القيروان ، ببسط لهم النساط وحملهم على أن يدروا لذلك ما عندهم من الحيلة وأن يتحيموها أولاً من الأطراف .

واستعد العرب للهجوم على الغرب ، وقد أعدوا لذلك الجيوش  
والخشود يتقدمهم أمراؤهم وفرسانهم ، وجاءوا «الجارية» من مكة  
لتكون في الطليعة مع فتیان العرب لبث الشجاعة في نفوسهم  
وقلوبهم ، وتطيل القصة في خبر إحصار الجارية واستحلابها من  
زوحها شريف مكة بالحيلة ، وقد نقلنا هذا الخبر عن ابن خلدون  
في الفصل الأول ، ولكن القصة تطيل في شرحه وتفصيله تفصيلا  
وافيا ممتعا بما فيه من الخيل الطريفة والأشعار الطريفة .

ثم تميمس القصة في الحديث عن رحلة الهلاليين إلى بلاد  
الغرب ودحوهم إلى أفريقية ، وما جرى لهم من الحروب الدامية  
والوقائع العنيفة ولقائهم في الطريق للحفاحى عامر والملك العصان  
وشيب التميمى والردويل بن راشد . وفي هذا تذكر القصة  
أسماء ملوك وقبائل من الصعب أن ردها إلى حقيقتها التاريخية  
وكثيراً ما يظهر فيها خلط القصص وتصيدهم للأسماء والوقائع  
تصيداً يمدوفيه التلغيق وعدم الدقة ؛ ثم تأخذ القصة في رواية ماجرى  
من الحروب والوقائع بين الهلاليين وبين أنى سعدى الزناتى حليمة ،  
وأبو سعدى الزناتى هذا شخصية تاريخية كما مر بك . فقد كان  
قائداً ووزيراً لصاحب تلمسان ، وقد حارب الهلاليون بعد ماتم لهم

فتفتح القيروان والتغلب على المعرّ بن ناديس . ولكن القصة تصيف كل حروهم في أفريقية مع المعر وغير المعر إلى الزناتى هذا ، وتصوره فارساً صديداً و بطلاً عبيداً من الصعب قهره والتغلب عليه حتى طالت الحروب بين الهلاليين وبينه أمداً بعيداً . وهنا تصور القصة أن يريد الهلالى رجلاً نارع الحيلة يحتمل للتغلب على الزناتى بالدهاء والحيلة ، فوقف على حطة لقتله وضعتها سعدى انة الراتى نفسه لشغفها بمعرى عندما كان أسيراً في سجن أبيها . ولما كان المجمعون قد أخبروا بأن الراتى لا يقتله إلا دياب بن عام فقد استخدم أبوريد دياناً لهذا الغرض ، واستعان بالجارية وفتيات العرب الحيليات على إثارتة وبث الحمية في نفسه ، وردد دياب لمازلة خصمه ولكنه وجد نفسه أمام خصم عبيد لا يقهر بسهولة ، ولا يمكن التغلب عليه بطراً لما كان يلدسه الراتى من الزرد والمعار لتى تعطى جميع جسمه ، فأشار عليه أبوريد بأن يطعنه في عيه وهو يلتفت إليه عند نهاية الشوط ، وهذه الرواية قد استعملتها لقصة من الحقيقة التاريخية عن موقعة العين التى أوردنا حديثها في الفصل الأول .

ولكن القصة تأتى هنا بمعجبية طريقة . وهى تذكر أن الزناتى

كان ابن جنية ، فإذا طعن في جسمه التأمت جراحه مع صباح اليوم التالي وعاد للمارلة خصمه كما كان من قبل ، وإذن لا بد من أن يحتال أبو زيد لهذا الأمر، فما أن علم بأن دياناً طعن الزناتى في عييه حتى تمكر في مظهر طبيب عربى، وخرج يبادى في الحى بمهنته . فطلبوه لإسعاف الزناتى من ألمه ، فوضع له السم في عييه ، وهذا ضمن موته ؛ وهما تتحدث القصة عن نهاية الزناتى حديثاً مؤثراً يعيى بالأسى والألم، فهى تروى أن الزناتى علم بعملة أنى يريد معه ، وأن الجارية قصده فوحدته في موته فارساً مهاباً حتى أمها تشمت لما رأته وكانت لا تتوارى من رجل مهما كان قدره .

وموت الزناتى خلا الحول للعرب ، وتم لهم الاستيلاء على تونس والتربع على تخوت الغرب السمعة ، ويعرف هذا القسم من القصة بقصة « السمع تحوت وسلطنة دياب وأنى يريد وتملك الأربع عشرة قلعة » ، ويقول محرر المهرس العربى لدار الكتب المصرية : « إنها قصة عجيبة وسيرة غريبة وهى من أحسن سير بنى هلال شعراً ونثراً . وأعجبها مقالا وأشدّها حروبا ورايا » .



وبعد أن تآتى القصة على ماتم للهلالين وإخوانهم من تملك البلاد وقوة السلطان ، تأخذ فى سرد ما وقع بينهم من المازعات وتجدد الخلاصات القديمة والعداوات الدفينة ، فكان أن قتل الحسن بن سرحان شبانة بن الأحيمر ، وسجن دياب بن عام ثم تحوات الأحوال وقتل دياب الحسن ووقع القوم فى نزاع مستعر وحروب طويلة أدت إلى تفرق شملهم وذهاب ريمهم وتفرق أجيالهم فى الأقطار والأمصار ، وهكذا تحرى القصة فى رواية القصص وأحاديثهم . فعند أن تشتعل جذوة من الحاسة وتشت بارأ من الخصومة . تفيض بسيل من الدماء ، وتتأجج فيها العداوات والثارات ، ثم تنتهى هادئة لينة يغمرها الاطمئنان والاستسلام فى نفمة حريفة أسيفة ، كأها دولة طويت ، ودنيا انقصت ، وتكون الخاتمة لأحداثها الرهيمة وأهوالها المعجبة فى حديث الشعراء والمحدثين ، « وسبحان من من له الدوام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

## الفصل الثالث

### مظاهر الطويلة كما تصورها القصة

#### أبطال القصة بين الحقيقة والخيال :

أهل أروع ما يأخذك في القصة الهلالية هو ما فيها من تصوير نارع للطولة، وهي محال حرب ونزال، وسير أبطال ورجال، وميدان صاخب تحتشد فيه ألوان من الصور والأشكال ، ولكذك على الرغم من هذا تجد لكل بطل فيها صورته الواضحة وشخصيته المتميزة ووضعه اللازم الدقيق .

فأبطال القصة على ما يبينهم من شدة المخالطة والمجازة والمراحة يبدون في وضع مسرحى كله حياة وكله حركة ، فكل بطل له دوره الخاص ومكانه المقدر حسب ما يقتضيه أداء الأدوار ومحرى الحوادث ، وللرأة في هذه المسرحية دور هام ومكان بارز كأنه جاء مكملًا للحبكة الفنية فيها والعقدة المسرحية في وضعها ، ولو أن هذه القصة حردت من بعض التعليقات التي كان يستخوبها خيال القصاص في التعليق على بعض الحوادث لجاءت

نسقا منسجا لا تذوذ فيه ولا مؤاحدة عليه .  
 ومن أبطال القصة من هم بأسمائهم وبعوتهم من اختراع  
 القصص وابتداعهم ، ومنهم من هم أشخاص تاريخيون أصبى  
 عليهم القصص من النعوت والصفات وأضافوا إليهم من الخوارق  
 والحالات ما يرغبون فيه ويميلون إليه ويرويه مما يروج في  
 الحديث عند العامة والجاهلير . وقد ذكر ابن خلدون حلة من  
 أبطال القصة الماررين الذين لهم وعود تاريخي<sup>(١)</sup> ، وما يريد في  
 هذا الفصل أن روى لك سير هؤلاء الأبطال على ما تأتته الحقيقة  
 التاريخية ، ولكما يريد أن نعرض عليك صور بعض مهم كما  
 نتجلى في القصة لتكون نماذج أمام القارىء لما آثره القصص  
 في تصوير المطولة في القصة .

### الحسن بن سرحان :

الحسن بن سرحان ، ويكنى أبو علي ، ويلقب بأمر القمائل  
 أو ملك العرب أو ملك الملوك ، وترجع شهرته الكبيرة عند  
 العامة إلى الكرم أكثر مما ترجع إلى الحرب ، وهم يصرون

---

(١) راجع الفصل الأول

به المثل للرجل الكريم المصيف فيقولون : « عامل أنوعلى » .  
والحسن أول من تذكر القصة من الأبطال وهى تقدمه دائماً  
فى كل موقف من المواقف وشأن من الشؤون . وإنما تحرص  
على تقديمه مراعاة لحكم الأوصاع التقليدية ، أو ما سميته « نظام  
الروتوكول » فى التعبير الحديث ، وعلى هذا نجد أنها تحيط بشخصيته  
بهالة من الجلال والمهابة ، وتصور بطولته على ما تقصى به  
الارستقراطية الملوكية من الوقار والرامة ، فهو جواد يعطى أضعاف  
ما يعطى سواه . أنى يحمى من يلود بحماه . شجاع يبادر فى  
الطليعة إلى البرال . مهذب لا يعرف إلا بحميد الحصال ،  
يقدر ويعفو ، ويفصب فيثأر . رأيه مسموع ، وكلته نافذة .  
مسيطر فيما يتصل بشخصه ومكانته ، ولكنه فى شؤون الرعية  
حاضع لرأى الجماعة ومشورتهم . باحثهم فيما يجب من الأمر  
وما يصح من التدبير ، ثم يأمر بما يتمقون عليه . ويمكن أن تعتبر  
شخصية الحسن فى القصة أحد الشخصيات عن التلقيق ، فلم  
تسغ عليه ما أسنفت على الآخرين من العرائب والمخالات  
والخوارق والخرافات ، ولكنها شخصية « ملوكية » مهددة استمدت  
القصة صورتها مما كان معهوداً فى أوصاع الملوك والحكام يومذاك

على أمثل ما يحب وأحب ما يكون ، وإذا كان في حوائب هذه الشخصية شيء من الخروج على المألوف في الطبيعة الإنسانية ، فهو الإسراف في الجود والتبذير في العطاء وبدل المال في سماحة إلى من يستحق ومن لا يستحق ، وهذه لا شك ناحية خلعتها عليه «الشعراء» استجابة لأهوائهم وأغراضهم، وكثيراً ما يشيرون إلى بذخه في الترحيب «بالشعراء» الذين كانوا يرلون عليه ، فيبالغ في إكرام وفادتهم ، ويصاعف في إحراج أعطيتهم ، وهي إشارة كما ترى لا يخفى العرض فيها ولا المطلوب من ورثها ، إذ كانوا بذلك يستحشون كرم الباذلين لهم والعاظمين عليهم .

### أبو ريد الهلالي :

ويأتي بعد الحسن أبو ريد الهلالي ، وهو أظهر بطل في القصة بل هو بطلها ومدار الحديث فيها ، وبه تعرف وتوصف ، وقد مر بك أن أماريد هذا كان اسمه أولاً « تركات » ثم سمي «سلامة» نظراً لسلامة نبي رحلان على يديه ، وبعد ذلك أخذ يعرف بأبي ريد الهلالي سلامة ، ويكنى بأبي محيمراً كبر أبنائه وأشجعهم ، ويوصف بالأسمر لأنه كان أسود اللون ، وهو وصف

يلد للشعراء والمحدثين ترديده وتكراره .

وتصور القصة بطولة أى زيد تصويراً خارقاً ، وتلصق به من  
 السموت ما هو فوق الطبيعة البشرية ، ولا تقف فى هذا عند ناحية  
 الشجاعة والعروسية ، بل تمتد به إلى كل ناحية من المواحي التي  
 تتصل بحياة هذا البطل العظيم من يوم ولادته إلى يوم مماته ،  
 فهي تحكى أن مولده كان تحميقاً لدعوة محانة تصرعت بها والدته  
 إلى الله ، ثم تتحدث عن حياته فتذكر أنه شب على العروسية  
 والبجاة حتى استطاع أن يقهر أشجع العرسان وهو شاب حدث ،  
 مما لمت الأنظار إلى مهارته وراعته ، وحمل الناس يلهبون باسمه  
 فى أحياء العرب ، وأبت قد وقفت على الرواية فى نشأته مما أوردنا  
 قبلا فى نسق القصة والتلخيص لمواقفها ، وقد عرفته فى هذه النشأة  
 بطلا خارق العظولة ، مذ المواهب ، موفق الخطوات ، وهكذا  
 عاش هذا البطل فى حياته الحربية والسياسية ، وفى قيادته  
 للجيش ، وكأنيته بالإعداء ، ورعايته للقائيل والجوع ، فهو فى  
 الحرب شجاع مقدم يخف إلى كل معترك ، ويتصدى لكل هممة ،  
 ويسرع إلى مبارلة كل خصم عنيد ، وبطل صنديد ، فلم يخذل فى  
 موقف من المواقف ولم يغلب فى حرب من الحروب ، وهو فى السياسة

داهية واسع التقدير والحيلة ، وتبالغ القصة في تصوير بطولته في هذه الناحية، فتروى أنه أعطى « جراب الحيلة » ، فما كان يعجز عن التدبير لأى ورطة مهما بلغت من الصعوبة والشدة ، ولا كان يفقد صوابه أمام تخرج المواقف واستحكام الأزمات ، ولأجل أن تسخ القصة عليه هذه الصفة إسباغاً ملائماً أعطته كل المؤهلات اللازمة لها، فكان عاية فى العلم بالسحر والتنجيم والطب والحكمة، واسع الخبرة والدراية بطبائع الرجال والنساء ، عارفاً بوسائل الدخول إلى النفوس ، نارعا فى استمالة القلوب ، ثم كان إلى جانب هذا كله رجلاً متمسكاً بإسلامه ، شديداً فى دينه ، له شخصية متسلطة فى الأمر والنهى وحرّم الأمور ، ولهذا كان فى الواقع هو المدر الحقيقى لشئون القوم والأمير عليهم ، وما كان الحسن بن سرحان إلا طوع يده ، ورهن إيسارته وخلاصة ما تصفه به القصة أنه « صاحب المكر والكيد ، وفارس العرب والعجم ، والترك والديلم .. » .

### دياب بن عام :

أما دياب بن عام فهو فى القصة ثالث الاثنين ، فتأتى شخصيته

في الدطولة من بعدها ، وتبدو صفاته معقولة أقرب إلى الواقع من الخيال ، فهو فارس حرب ، وبطل معارك ، وترتفع بطولته في هذه الداحية بمنازلته للزناى حليمة وتغلبه عليه بعد أن أعجز كل شجاع وبطل ، حتى أبازيد نفسه والحسن بن سرحان كذلك . ولكن القصة تقتصد معه وتقتز في حقه ، فلا تدع له كل هذا العسل ، بل تدكر أن أناريد كان يعينه بحيلته ، ويسعده بتدبير الحطط في الصرب والبرال ، حتى إنه لما طعن الزناى الطعمة القاتلة كان أنوريد في الجهة الثانية يصع السم في حرح الفارس الصريع ليؤكد القضاء عليه .

وإذا كانت القصة قد نالت في التهويل عن نشأة أنى زيد ، فإنها اقتصدت اقتصاداً واقعياً في الحديث عن نشأة دياب ، بل أهملت شأنه كل الإهمال ، فلم تدكر عنه إلا أن والده كان فارساً وكان مزواجا ، ولكنه لم ينبج من روجانه ، ثم تزوح بأم دياب وكانت غاية في قبح الشكل ودمامة الخلق ، لها ناب بارر قبيح حتى قضت طول حياتها مستقبة من أحل ذلك ، وقد رصى بها عاصم روجا طمعاً في أن ينبج منها ، فلما كان له منها دياب صبر على معاشرتها أربعين عاماً اعتزراً بالفارس الذى حفظ اسمه في



قومه ، وارتفع بذكره في القبائل ، وكان دياب كلما خالف والده في أمر أمسك بيده ورفع النقاب عن وجه والدته وقال : لقد صبرت على الرضاء بهذا أربعين عاماً من أجلك ، فيدعن دياب لأمره ويسير على رأيه .

وتصور القصة ان عام بطلا شديد الأس ، طويل الصبر على الزال ، قوى الشكيمة على الخصم ، ولكمه في شجاعته متهور ضيق العطن شديد الاعتداد بنفسه معرور شجاعته ، وقد ارتسمت صورته هذه في أدهاا العامة حتى ليصربون به المثل : فيقولون للرجل السريع الغصب الذي لا يصبر على احتمال الأمور « أنت رغبى » ، نسمة إلى رعبة قبيلة دياب ، ومن حراء هذا التهور كان دياب يتطاول على السلطان حسن بن سرحان وأبى زيد الهلالي ، وخاصة بعد أن صرع الزباني خليفة ، حتى أحد يتطلع إلى الملك والرئاسة على العرب ، فكان لا بد أن تقع الحموة بينه وبين صاحبيه ، وكان لا بد أن يعمل على كبح جماحه وأن يأخذ بالشدّة ، فكانت نهايته إلى القيد الثقيل ، والسجن سبع سنوات كاملة ، ثم أطلقه السلطان حسن بعد أن تشمع له كثير من أمراء العرب وأعيانهم ، وقد أحقد هذا دياناً فكان أن اعتال الحسن على فراشه

كما قتل أما زيد حيانة وهو يلعب معه . هكذا تروى القصة .  
ولكن الرواية التاريخية تقول : إن الذى قتل الحسن هم أولاد  
شبابة بن الأحيمر فى ثار أبيهم كما مر لك .

### الحازية أخت الحسن :

وفى القصة صورة من البطولة الفذة لامرأة ، وهى الجارية أخت  
الحسن بن سرحان ، وتكى بأمر محمد وهو ابنها الذى أحمته من  
شكر أمير مكة على ما قدمنا من خبر ذلك فى الفصل الأول .  
وتبدو صورة الجازية هذه صورة رائعة حقاً ، وكأن القصة بما  
أصغت عليها من صفات البطولة قد أرادت أن تجعلها صورة  
مثالية للمرأة البطلة ، وكأن هذا المعنى هو الذى استهوى المستشعق  
الفرنسى « بل » فجعل شخصية الجارية عنواناً لكتابه الذى  
قصره على هذه الماحية من التاريخ .

كانت الجارية آية فى الجمال ، تصفها القصة بأنها كانت « حميلة  
المطر لطيفة المحصر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال ، فى الحسن  
والكمال ، والقدر والاعتدال » وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها  
بين الخلق . لا فى الغرب ولا فى الشرق ، كأنها الشمس الصاحية ،

طلعتها تنعش الصدور والأرواح ... ا»، وإلى جانب هداكات  
الجارية تتمتع بمكانة رفيعة من الجاه، تروحها أول الأمر شكر  
أمير مكة. فلما خرج الهلاليون من مجد أصروا على أحدها معهم  
واحتالوا على روحها بأنهم في رحلة للصيد فلما بعدوا بها عن الديار  
وعلم شكر غرضهم تألم لمعارقة روجه، ووجد بها وجداً شديداً،  
وكلمت هي أيضاً به، وحزنت على معارقة أسها منه، وتروى «لشكر»  
في الجازية أشتعار يقول ابن خلدون إنها تترى نقصص الجنون  
مع ليلي، فلما انتهى الهلاليون في رحلتهم إلى رقة طلب منهم  
ماصى بن مقرب أميرها أن يصهر إليهم في الجازية، فرصوا بذلك  
حتى يتعمعوا بمعونة ابن مقرب ويضمنوا مشايعته لهم، ولكن  
الجارية أبت وتمعت وفاء منها لشكر، حتى أدى ذلك إلى أزمة  
شديدة شملت نال القوم، وتطيل القصة في تصوير هذه الساحة  
من حياة الجازية، ثم تذكر أخيراً أن ماصى بن مقرب تلقى  
كتاباً من شكر يتناول له فيه عن الجازية، وهذا حلت المشكلة،  
وتم رواجها من ماصى، ولا تعنى القصة بالحديث عن حياة الجازية  
الروجية بأكثر من ذلك.

أما حياتها الاجتماعية والسياسية فهي محال الظهور والبطولة ،  
 إذ تثبت لها القصة في ذلك شخصية قوية لها مكانتها العالية وكنيتها  
 المافدة ، فما كان العرب يعصلون في أمردون الرجوع إليها ، وتقول  
 القصة إنها كانت تتمتع ر مع المشورة في شئون العرب وما يدرون  
 من الأمور ، ومعنى هذا أن المرأة كان لها من المكانة والاعتبار  
 عند هؤلاء البدو أرحب مما يحسب لها في أمثل النظم الديمقراطية  
 في العصر الحديث ، وإلى جانب مرلة الرأي كانت للجارية منزلة  
 ظاهرة في ميدان الحرب ، فكانت في كل معركة على رأس  
 سرب من العتبات الحيليات يشجعن العرسان بأناشيدهن ،  
 ويحركن في الأبطال وحدانات المحوة والشجاعة والدفاع عن  
 الحريم وحماية الأعراض ، كما كانت متقدمة في مواقف التدبير  
 والحيلة ، تعرف كيف تدحل على نفوس الرجال من الناحية الضعيفة ،  
 فهي التي أصت دياب ابن عام وأخذت تثير فيه كوامن الشجاعة  
 لتجمله على مبارلة الزناتى والأخذ ثأر العرب منه ، وهي التي عادت  
 أنا ريد الهلالى فى الحيلة للدحول من سور القىروان والوقوف على  
 أسرار الدفاع داخل المدينة مما ساعد الهلاليون على تحطيم ذلك

السور الصخ، والاستيلاء على القيروان بعد الحصار الطويل على ما قدما في الفصل الأول .

فبطولة الحاربية كما تصورها القصة بطولة فدة ، وإيها بميراتها الباهرة وصماتها الرائعة ، لخليقة بأن تأخذ مكائتها بين بطلات التاريخ ، على وضع إن لم يصح كله من ناحية الحقيقة التاريخية فهو صورة مثالية لخليقة بالتقدير والإعجاب .

### الزنانى حليفة :

ويعتبر الزنانى الطرف الثانى فى القصة، فهو العدو الذى وقف فى وجه نبي هلال وصمد لبراهم ، وأذاقهم كثيراً من الأهوال وانشدائد ، وكل ما تذكره الرواية التاريخية عن الزنانى هذا أنه كان وزيراً لصاحب تلمسان ، وأنه حارب الهلاليين فتغلوا عليه وقتلوه فى موقعة الراب ، ولكن القصة تصعه فى صورة رائعة من البطولة ، وتحمل عليه تاريخ النصال الطويل الرهيب الذى واحه سو هلال وإحواهم فى أقطار أفريقية وبلاد الأندلس ، وتقف به فى مقابلة الهلاليين قوة هائلة اقتضى إخصاعها كثيراً من الجهود والتصحيات ، وكأن القصة قد أرادت هذه المبالغات التى

نسجتها من حوله أن تمجد بطولة الهلايين في تغلبهم عليه ، وأن  
تشيد بقوتهم وشجاعتهم إدا قهروا عدواً ليس من السهولة أن يقهر.  
أول ما تحكيه القصة عن الزناتى أنه كان ابن « حنية » ،  
مكان إذا طعن بالسيف وأريق على حربة قليلا من « ماء  
الحياة » التأم لساعته مهما كان مبلغه من الخطورة ، ولهذا السبب  
لم يستطع فارس من العرسان أن يبال منه منالا ، ولهذا السبب  
أيضاً حير أمره الهلايين حتى ضجروا من شدة حربه ووقوفه  
أمامهم ، ولم يقدروا على قتله إلا بالحيلة ، إدا طعنه دياب فى عينه  
ووضع له أنوريد السم فى الخرح فسرى فى جميع جسمه كما أشرنا  
إلى ذلك من قبل .

وتصف القصة الزناتى فى بطولته بأنه كان فارساً شجاعاً واسع  
الدراية بأساليب الحرب والحيلة فيها ، صعب المراس ، له حربة  
رهيفة ، تقذ الصخر الممتين ، فدأت الدنيا لسيفه ، وأذعن الشجعان  
لنطشه ، ولما اقتحم سور هلال بلادهم فى حيوشه ، وثلت  
لنراهم ، وصبر على حرهم فى عناد وإصرار حتى أوى كثيراً  
من شجعانهم ، وقد كان لشدة عيظه منهم يابحاً إلى أعصف أساليب  
القوة والرهمة ، فكان إذا ما قتل فارساً من بنى هلال اجتر

رأسه وعلقه على سور القيروان إرهاباً لهم وتشجيعاً عليهم ، وكان  
هذا الصنيع الشنيع يحارب أعصابهم و يقصد إلى تحطيم الروح  
المعنوية فيهم مما يعتبر أساس المصر في أساليب الحرب الحديثة .

وكان الزناتى يعرف أن مصرعه لا يكون إلا بيد دياب بن عامر  
كما أنبأه بذلك المنجمون وأهل السحر والعرافة . وكان الهلالىور  
يعرفون ذلك أيضاً ، فلما صاقت بهم الحيلة وضجروا من عباد  
الزناتى وشدة مراسه ، أرسلوا إلى دياب وهو فى مؤخرة النجوع  
يثيرون نخوته بما قتل الزناتى من قومه ، مركب دياب إليه وبأداء  
إلى المزال ، فلما علم الزناتى بذلك أيقن باقترب مصرعه .  
ولكنه نزل لحرب دياب فى صدر وثبات و راعة تطيل القصة فى  
شرح مواقفها وتحكى بالتفصيل دقائق وقائعها ، وقد طالت  
الحرب بينهما حتى ضجر من طولها الزناتى كما ضجر دياب ، وأحير  
استطاع دياب أن يصرع حصمه بخيانة سعدى بنت الزناتى لأبيها ،  
وموت الزناتى انتهت دولته لأنه كان المثل الوحيد فى قومه ،  
ولم يثبتوا من بعده لحرب الهلاليين إلا قليلاً ثم أذعنوا لطاعتهم .

## سعدى بنت الزبائى :

ولسعدى هذه موقف هام فى القصة وصورة أحادة بما يشيع حولها من السمات والصفات والأقاويل والإشاعات ، وبما يفيض القصاص عليها من العواطف المتأحجة والمراثر المتلهمة والآمال المسكوبة . أما الرواية التاريخية فلا تعرض لها شئ . إلا ما تذكر من أن والدها الزبائى كان يلقب بأبى سعدى ، ومن الجائز عند العرب أن يلقب الرجل بلسنته وأمه كما يلقب ناسه وأبيه ، ففعل هذا كان من الجائز أيضاً عند العرب .

وهناك رواية فى نسب قبائل السعدى التى تنتشر فى رقة وبعض جهات مصر تقول إن هؤلاء العرب من سلالة امرأة تسمى سعدى من زبائى ، وهى بنت عظيم من عظمائهم أخذت فى حرب ابن ناديس . وتزوج بها زعيم بنى سليم إذ ذاك ، وكان رجلاً عظيماً يسمى بالدثب ويلقب بأبى الليل ، ويقسم أولاد سعدى إلى ثلاث قبائل : - البراعيث - والعقارة - ومواطهم فى رقة - والسلالة أو بنى سلام وهم أيضاً ثلاث قبائل : الهادى - وبعوونه - والجبالية - وجميعهم يسكنون سواحى مصر ، إذ وفدوا عليها من



طرابلس في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة  
 فهناك إبدأ أصل تاريخي تقوم عليه قصة هذه البطلة ، وقد  
 استغل القصص هذا الأصل استغلالاً كبيراً وانتقلوا زمانه  
 ومكانه والوصع الحقيقي فيه إلى الوضع الذي أرادوه في ترتيب  
 حوادث القصة والتشويق بفرائها وطرائفها . حتى ليكن أن نقول  
 إن كل ما تذكره القصة الهلالية عن سعدى بنت الرمانى وماترويه  
 عنها ليس إلا من إختراع القصص وانتداع خيالهم ، وإيه لخيال  
 حصب موفق في رسم الصورة التي اختارها لهذه المرأة ، بل في  
 رسم الصورة المثالية لكل امرأة تواجه الحياة بفرائزها وتعرض  
 ميولها وهواها على كل شيء في الوجود وتضعه فوق كل شأن  
 من شؤون الحياة والناس ، مهما كان شأن الحياة التي تواجهها وشأن  
 الناس الذين يعترضون طريقها .

قصة سعدى كما يرويها القصص ، هي في الواقع قصة كل  
 امرأة ، ومثيلاتها كثيرات في التاريخ وفي الحياة الواقعية ، ولن  
 نستطيع أن نقابل بين وضع سعدى ووضع الجازية في القصة  
 إلا في الامتياز بالحال والجاه ورفعة المكانة ، ثم تختلف الصورتان  
 بعد ذلك كل الاختلاف : فالجازية كما مر بك كانت امرأة لها

رأى راجح ومشورة نافعة وكانت تشارك في شئون الحرب والسياسة والتدبير لذلك وتحمل من ذلك عبئاً ثقيلاً مثل ما يحمل الرجال ، ثم كانت دائماً في موقف الغيرة على قومها وبصرتهم ، حتى لقد صحت بحبها لزوحها الأول في سبيل معونتهم والرحيل معهم إلى الغرب ، وعلى العكس من هذا كله كانت سعدى .

أجل ! فقد كانت سعدى على ما تروى القصة وحيدة أيتها هو سيد قومه ، فكانت في مقام رفيع من الجاه والمكانة . لا يرى أحد الكفاءة في نفسه لطلب يدها من أيها ، ولا ترى هي أن تنزل حتى قبول أحد أدنى من مكاتها ؛ لما وقع أبو ريد وفتيان الهلالية الثلاثة — يحيى ومرعى ويونس — في سجن الزناتى ، وساقهم إلى المشنقة بتهمة التجسس كما مر بك في قصة الريادة أطلت سعدى للتمرج ، فوقع نظرها على مرعى ، فأخذت بحمالة وعلق قلبها بحبه ، وأسرعت إلى أيها بالشاماعة و هؤلاء الغرباء الدين لا حول لهم ، والذين قد يكونون أرياء مما نسب إليهم ، ورأت أن يسجنوا سجيناً مؤبداً بدلاً من إعدامهم ، فأصاخ والدتها لرأيها وحقق لها رجاءها نظراً لإيثاره لها ، وبالغ شفقتة عليها .

وأخذت سعدى تردد على مرعى في السجن كل ليلة في خمية

عن أبيها وقومها ، فتكشف لمرعى عن غرامها به وحبها له وأملها فيه ؛ ويكشف لها هو الآخر عما فى قلبه لها من الغرام والحب والأمل ، ولكنه مع ذلك مشغول بالمهمة التى تتطوع من أجلها ، حريص على الوفاء لشرف أهله وقومه ، ثم هو عفيف النفس طاهر الدليل فلا يستغل شرف الفتاة فى إشباع عرائزه ، ولا يندفع للاستجابة لميولها ورغباتها ، وإعما يعدها حياة الزوجية المكرومة ويمشيها بأنه لو خرج من سجنه وأخبر قومه بهذا الحب فسيحضرون لخطبتها له ويتم لهم الأفراح والليالى الملاح ، ولكن الفتاة كانت تحشى أن يخرج من السجن فيرجع إلى قومهم ويدساها وهى لا تقدر على فراقه ولا تصبر على بعده . على أنها ماذا تقول لوالدها فى هذا الأمر ، وماذا تحاول وهى تعلم حق العلم أنهم جواسيس وأن ملك والدها مهدد إذا أفلتوا من إيساره . . وأخيراً تعلب الحب على كل معنى آخر وفتق بالحيلة للفتاة ، فاحتالت عند أبيها لخروج أنى ريد لأنه عبد لا قيمة له ولا حطر ، واعتبط مرعى لهذا الصديق لأنه يعلم ما وراءه من الخير ، ويعلم أن أنازيد سيعود بدى هلال وإحواهم ، فيعلب الرماوى على أمره ويخرج العتيان الثلاثة من سجنه .

وحرث الأمور على ما قدر مرعى، فلم تمض إلا فترة من الزمان حتى رحع أنور يد ومن ورائه جموع بنى هلال وسليم وإخوانهم لحرب الزناتى، وكانت سعدى على حالها من الهيام بحب مرعى والنزول لملاقاته كل ليلة خمية، وكان هو فى حال من القلق والاضطراب والتطلع إلى ما تجرى به الأقدار من تطور الحوادث مع قومه ونصرهم المنوط به خروجهم من سجنه وكان على سلوكه مع الفتاة يعدها ويمنيها ويدكرها دائماً بأنه رجل شريف ومن نسل عربى عريق لا يعرف الحما ولا يرصى العجور فى الحب، فلما وصلت طلائع الهلاليين والتحمت جيوشهم بمحيوش الزناتى، حسلت الفتاة أن أملها أوشك أن يتحقق، وقدر مرعى أنه صار قريباً من أمله، ولكن الحرب طالت بين المريقين أكثر مما يحب، ووقف الزناتى عنيداً فى وجه العراة العاتمين، وصجرت الفتاة والفتى من طول الانتظار أكثر مما صجر الحاربون من قسوة البرال، وكان صجر الفتاة أكثر، وكان الحب يستند بمواظفها ويسلمها إرادتها حتى حملها، على ركوب المرك الحشن، فاتصلت بالهلاليين، ودلتهم على مواقع الصعف فى والدها وفصحتم لهم أسرار الحربية، وأنبأتهم بأن مصرعه لا يكون إلا على يد

دياب ابن عاتم كما أخبره بذلك العرافون، فكان هذا مما ساعد  
 الهلايلين على إدراك عرصهم من الزناتى وظهرهم به وعملكه  
 ترى هل تكون عواطف الحب عند المرأة أقوى من عواطف  
 النوة ؟ وهل يكون الوفاء للحبيب أقوى من الوفاء للوالد ؟ وهل  
 يهتم المرأة الظمر في الحب أكثر مما يهتمها الظمر في الحرب ؟ كل هذا  
 تجيب عنه القصة بالإيجاب في تصرف سعدى ، وكل هذا يتجلى  
 واضحا في قصة تلك المرأة التى سحقت عرش والدها في سبيل  
 الاحتفاظ بقلها وإشباع عواطفها ، أو إن شئت التحقيق فقل  
 غرائزها ، ومثيلات سعدى كما قلت لك كثيرات ، وقد نجد هذه  
 الشخصية في الرجال وإن كان وجودها يكثر في النساء .

ثم ماذا ؟ ثم كان عذر القضاء بالعتاة أقسى من عذرهما بوالدهما ،  
 فقد خرج مرعى من السجن ، وانتظرت منه العتاه الوفاء فلم يفعل ،  
 فخرجت إلى دياب الذى قتل أبيا وقصت عليه قصتها وبكت  
 بين يديه لعله يرق لحالها ، فاحتجرتها في بيته ثم طلبها لنفسه فمهرت  
 من هذا الطلب وواحته في غلظة ، وتهور معها دياب وأراد أن  
 يدل نفسها حتى تذعن له ، فألبسها الحيش وقدم لها الطعام الحشن ،  
 وقصى عليها أن تطحن الملح وأمر عبيده بالقسوة في معاملتها وكما

أصرت الفتاة على رفض طلبه أمعن في القسوة عليها ، ولجأت الفتاة إلى السلطان حسن ، وشكت إليه ما قاسته من عنت دياب ، فرق لحالها وأمر بأن تعيش في بيته عيشة مكرمة ، بل لقد أخذ في حساب دياب حسناً عسيراً على فعلته ، وكان هدام الأسباب التي حملته على سجنه ، وأخيراً تمت فصول الرواية العنيفة القاسية بأن روت سعدى إلى مرعى .

فليس من شك في أن حيال القصص كان حياً لا حصاً موفقاً في خلق هذه الصورة القصصية ، وحبك مواقفها حبكاً دقيقاً تضطرم فيه العواطف ، وتورع فيه الميول والرغبات ، وقد استهوت قصة سعدى ومرعى العامة كثيراً وراج حديثها بينهم وحملوه قصة قائمة بنفسها ، ومن ما ينسى ما شاهد وما سمع في (صندوق الدنيا) عن مدين العاشقين ؟

الطولة كما بصورها القصة

الطولة في القصة والطولة عند العرب :

تلك صورة موجرة لمعص الاطال المشهورين في القصة ، اخبرناهم من الأشخاص الذين أثبت التاريخ وجودهم ، وألغ العلامة

ابن خلدون في تاريخه إلى حقيقتهم ، وقد أردنا بذلك أن نصع بين يدي القارئ أمثلة لما تؤثر القصة من الصفات والشئائل في تصوير البطولة وتمييز شخصية البطل ، والواقع أن القصاص قد جعلوا الأصل في هذه الناحية ما كان شائعاً عند العرب ، وهذا شيء طبيعي ، فان القصة قصة عربية وبيتها عربية وأشخاصها من العرب .

فالعرب كانوا يشترطون في البطل الشجاعة والقوة والشهامة والروءة وهبة الشعر والفصاحة والتقوى ورقة الخلال ، والمهارة في ركوب الخيل والبراعة في أعمال السيف والرمح وإكرام الصيف إلى غير ذلك مما يتجلى في صور أبطالهم التاريخيين مثل عنتره وعمرو بن معديكرب وحمرة وعلى بن أئ طالب وخالد بن الوليد ، وهذه كلها كما رأيت صفات عامة تخلعها القصة على جميع أبطالها ، فان فارقت بينهم في شيء من ذلك فهي مفارقة من جهة الصفاء والقوة لا من جهة الهدام صفة من تلك الصفات . بل إنك لو نظرت إلى صور الأبطال في هذه القصة وإلى صور البطولة في قصة عنتره وقصة المهلهل بن أئ ربيعة وقصة سيف بن دئ يزن وقصة الظاهر بيبرس وغيرها من القصص

التاريخية التي لعب محققاتها حيال القصص، لرأيت الصورة واحدة ولرأيت هؤلاء الأبطال جميعاً يلبسون لباساً متفقاً في السمات ، والصعات، حتى كأنهم فرسان جيش واحد وليس الحلاف إلا في سيرة الجهاد ومواقع الحروب والعارات .

### الطولة في القصة والطولة عند اليونان :

وفي أبطال القصة أيضاً مشاهه كثيرة من صور الأبطال عند اليونان ، وكثير من تاريخ هؤلاء وسيرهم يشبه تاريخ أولئك ، فالبطل عند اليونان كان نصف إله في وسعه أن يفعل الخير والشر كما يشاء ، وهو قادر على أن يصنع بنفسه ويعبره ما يريد من الصر والمع ، وليست أعماله إلا خوارق ومحالات ، وهذا يشبه إلى حد كبير ما ترويه القصة الهلالية من خوارق أنى يريد في أعمال الخيلة والسحر والتعجيم والإحمار بالعيب والإفلات من كل نارلة ، مما لا يتصور ولا يتحقق إلا بقدرة قادر ، ثم هو يشبه إلى حد كبير ما تذكره القصة عن الرباتي من أنه كان ابن حمية فكان إذا طعن بالسيف ووصع ماء الحياة على الجرح القام وعاد في اليوم التالي صحيح البدن سليم الجسم ،



ثم ما نتحدث به في غير موضع من أن القارس كان يصرب سيفه فيقصي على مائة ، وينزل إلى الميدان فيتغلب على ألف . حتى في الناحية التاريخية والأسطورية لوجود الأبطال ووضعهم القصصى يلاحظ المتأمل مقارنة عجيبية ، فقد قلت لك من قبل إن أبطال القصة الهلالية منهم أشخاص تاريخيون لهم وجود حقيقى ، ومهم أشخاص لا يعرف عنهم التاريخ إلا أسماءهم ، ومهم أبطال اخترعهم القصص اختراعاً واستدعوا كل شئ عنهم ، وكذلك الشأن في أبطال اليونان ، منهم طائفة اشتهرت في الأساطير وعدت من الأعيان مثل أحييل وأوليس وأغاممنون ، ومنهم من لا حقيقة له قط مثل ميراقليس وأوديب ، وبعضهم أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس ، وآخرون يدكرهم التاريخ ويسب إليهم أعمالاً مثل ليونيداس وميزاندر . وإن نظرة في المقارنة بين مواقع القصة الهلالية وما يروى من المواقع عن حروب طروادة لتدل اللاحث على مشابهة كبيرة ومظاهر متفقة ، وإن قصة حصار الهلاليين للقيروان التي رويها لك تعاصيلها من قبل لتشبه قصة حصار أعماممنون لمدينة طروادة ، فكل مهما دام مدة طويلة من الزمان وحررت فيه حروب ووقائع رهيبه مفرعة ،

ثم انتهى كل منهما بالحيلة وتم الكسب فيهما بالدس والوقعة .  
فهذه كلها مشابهات - وغيرها كثير - يلاحظها الباحث إذا  
ما قارن بين القعتين وقابل بين الأبطال هما وهناك ، بل إنه في  
هذا الصدد ليقف على مشابهات أخرى بين سير الأبطال في  
القصة الهلالية وبين مثيلاتها في أساطير العرس وخرافاتهم التي  
تحكيها الشاهامة وغير الشاهامة ، وكذلك يستطيع أن يجد مثل  
هذا ولو إلى حد ما فيما يروى من القصص المصرية القديم .

وهل يصح أن يكفى هذا عند الباحث لأن يحكم حكماً فاطماً  
أن القصص قد تأثروا بقصص اليونان ووقائع أبطالهم وما يحكى  
من أساطير العرس وأعاجيبهم في رواية القصة الهلالية وحك  
فصولها ووقائعها وما أضافه من الخوارق والحالات إلى أبطالها  
ورجالها ؟

أما إن القصص قد تأثروا بالعرب في ذلك فهذا ما لا شك  
فيه ، بل إنه الأصل الذي كان ماثلاً بين أيديهم فبنوا عليه وتوسعوا  
فيه ، ولكن ذلك الأصل بقي ماحوطاً في كل نواحى القصة وبخاصة  
فيما تتحدث به عن بطوله الأبطال .

وأما إنهم تأثروا بما عرف من قصص اليونان والعرس فإن

الباحث يجد نفسه بأزاء حقيقتين لا يستطيع إنكارهما :  
 الأولى أن العرب قد عرفوا اليونان وتأثروا بعلومهم وأدبهم  
 وما حلقوا من صروب الثقافة العلمية والأدبية كما أن المصريين  
 قد عرفوهم قبل أن يعرفهم العرب بدهر طويل ، إذ كانت الصلة  
 بين المصريين واليونانيين في القديم صلة وثيقة شاملة في شتى  
 النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية .

والثانية هي أن كثيراً من القصص في مصر قد وفدوا عليها  
 من العراق وخاصة بعد سقوط بغداد ، وقد كان العراق على صلة  
 وطيدة بمعارف الفرس وأدبهم وأساطيرهم ، وقد نقل كثير من هذه  
 الأساطير في العراق إلى اللغة العربية وذاعت في ألسن المحدثين  
 والقصص ، فلا شك أن الدين وفدوا منهم على مصر قد استغلوا  
 ما عندهم من ذلك للتجارة والكسب في محاسن الخاصة والعامة  
 والإغراب على الناس فيما يزحون إليهم من قصص شهى  
 وحديث طريف .

هاتان حقيقتان ناررتان لا يستطيع أن ينكرهما الباحث ولا أن  
 يعمل عليهما وهو سديل المقارنة بين ذلك القصص ، ولكن على  
 الرغم من هذا لا نستطيع أن نحرم للقارئ جرماً علياً بأن

القصص الذين رووا قصص الملاليين قد استلهموا القصص اليوناني أو العارسي ، ولا يمكن أن نصنع أيدينا في ذلك على حقيقة علمية تؤدي إليها أساليب البحث الحديث ، لأن المشابهة لا تبدو إلا في أمور عامة ووقائع شائعة تعطن إليها الأمم بفطرتها وتهتدى إليها بمرآتها وميوها ، فقد كانت الغاية في البطولة عند الأمم القديمة لا تعدو تمجيد القوة وتقدير الحب والغرام بالجمال ، وكانت الأداة في ذلك هي السيف والمهارة والحيلة ، وكان الميدان لذلك هو ميدان البرال والصراع والتعلب على ما يملك العير من القوة وما يقيم من الحواجر ، وكان البطل كل المطل هو الذي يصع يده على الرؤوس ويملك الأمر والمهي ويعور بأجل الجميلات في قومه أو فيما يحاوره من الأمم والقائل . وإذا ما لحظنا أن هذا هو الوضع العام والغاية المطلوبة عند الأمم القديمة في نظرتها إلى البطولة ، أدركنا أن ما وراء ذلك من التفاصيل ليس إلا ما يقتضيه الانحاء الطبيعي و يوحى به الأصل المشهود .

فالتشابه في الأمور العامة ليس مظنة الأخذ والاقتباس ، وليس للباحث أن يقيم عليه قاعدة للحكم ، وخاصة إذا ما تقاربت الدوافع والمواضع واتفق الغرض والغاية ، وهذا يكون في القصص

ويكون في الشعر ويكون في كثير من الاتجاهات الفكرية والماطية .

والانفاق في تليق المحالات والصاق الحوارق بالأبطال هو أيضاً من التشابه في إدراك الأمور العامة عند القدماء — لأنهم كانوا يفسرون مظاهر القوة بالعرابة وينظرون إليها على أنها شئ<sup>\*</sup> ليس في متناول العقل ، ولا من حس الأمور المألوفة ، وعلى هذا تصور اليونان المحال في أبطالهم ، وألصق القصاص المصريون الحوارق والعرائب بأشخاص قصصهم ، واعتقد العرب أن كل شئ<sup>\*</sup> عظيم من صنع الحن وعلمهم

### مقارنة بين الطولتين .

بقيت كلمة لا بد منها في المقارنة بين البطولة في قصص يونان والبطولة في القصة الهلالية ، وإن الباحث ليلمس في مجال هذه المقارنة فرقاً واضحاً بين الطولتين ؛ فقد كان البطل عند اليونان كما قلت لك نصف إله ، فليس من طبيعة الناس ولا من جبلتهم ، وإنه ليدور فوق إدراكهم بخصائصه ومميزاته ، وأفعاله ومحاولاته . أما البطل في القصة الهلالية فأنسان معقول ، يجور

عليه ما يجور على كل إنسان ، وكل أعماله مما يدخل في الطاقة البشرية على وضع من المبالغة والتهويل ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن البطل في القصة الهلالية أقرب إلى الحقيقة الواقعية وأشد صلة بحياة الناس . وعمدى أن هذا المرق يرجع إلى التفاوت بين العقليتين ، ولكنه يرجع أكثر إلى التفاوت بين الزمنين ، فاليونان قد صوروا أبطالهم وهم يصورون معبوداتهم ، أى في الفترة التي كانوا لا يزالون فيها يفتشون عن آلهة ومعبودات ويمسحون عن نماذج ومثل عليلا للإنسانية ، بل للألوهية التي التي توحى بها أفكارهم في العبادة ، فكان أن وضعوا أبطالهم في مرتبة قريبة من آلهتهم استجابة وحسوا لسيطرة تلك الفكرة على أدهاسهم وخيالاتهم .

أما قصاص القصة الهلالية فقد كانوا في زمن حلصوا فيه من سيطرة تلك الفكرة ، واتجهوا بالعبادة لله سبحانه وتعالى كما يقرره الدين ويعرصه الإسلام ، وإنما كانت فكرة الإعجاب والتمجيد هي التي تسيطر على أدهاسهم وخيالاتهم في ذلك الوقت ، وعلى هذا صوروا أبطال القصة في صورة من المثل الأعلى الذي يستهوى الناس بالإعجاب والتمجيد لا بالتأليه والتقديس .

والإعجاب يتفاوت في مراتبه إلى حد كبير ، أما التقديس  
 فيكون التفاوت فيه إلى حد ما ، ولهذا تجد الأبطال في القصة  
 الهلالية يتفاوتون في مراتب الإعجاب ، هرتنة الحسن بن سرحان  
 في ذلك غير مرتبة أي زيد ، ومرتبة أي زيد غير مرتبة دياب ،  
 ومرتبة دياب غير مرتبة الزناتي ، ومرتبة هؤلاء كلهم غير مراتب  
 الأبطال الآخرين الذين تذكروهم القصة مثل ماضي بن مقرب  
 والقاضي بدير وزيدان ومحيمر ومطاوع والعلام وأي خربة  
 وسواهم ، أما مراتب الأبطال في قصص اليونان فتبدو متقاربة  
 في المكانة وإن اختلفت في المنازع والاتجاهات .

هدا ما يلسه الباحث من الفرق بين تصوير البطولة في  
 القصص اليوناني والقصة الهلالية وهو الفرق المهم الأصيل ،  
 فكل ما يأتي بعده من الفرق فهي فروع عنه تستطيع أن  
 ترجمها جميعاً إليه .

## الفصل الرابع

تأثير القصة في المجتمع المصرى وتأثرها به

شاعر الرامة الذى سيطر على المجتمع المصرى !

ظلت قصة نبي هلال — أو قصة أنى زبد الهلالى كما هو شائع في التعبير — حديث المجتمع المصرى ثمانية قرون ، وظل شاعر الرامة يتحدث بها الناس من العهد العاطمى إلى اليوم ، فكان أنس المحالس ، ومهجة المحافل ، ومحلى السرور والشاشة . ذلك عهد أدرك الكثيرون ما محاليه الساحرة ، ولياليه الساحرة ، ومحالسه العامرة على مصاطب القرى في الريف ، وفي مقاهى المدن والقاهرة ، ولا تزال إلى اليوم تقرأى منه رسوم محيلة في زوايا الأحياء الوطنية العريقة ، إذ يقف المار بها ليلا على مقهى صغير شاحب يقوم في حارة أو منعطف كأنه يمعن في التخفى من مظاهر المدنية الحديثة ، وقد جلس فيه المحدث أو الشاعر للرواية والتقصص ، ومن حوله جماعة من أعيان الحى المقيمين



والتجار الحليين والشيوخ المتقاعدين يلتصقون الحكمة والقُدوة في سير الأبطال وأحاديث السابقين ، وكأنهم بالإصرار على تلك التقاليد الموروثة يكافحون بها في معركة البقاء للأصلح فالناس ينظرون إليهم في استخفاف ، ويعتبرونهم طراراً قديماً متخلفاً عن روح العصر ومباحه الممتعة التي تؤذيها الآن الإداعة أو الخيالة أو يقوم بها الأشخاص على المسرح ، وهم كذلك ينظرون إلى هؤلاء الناس في استخفاف ويرمونهم بالحمل لمورد الحكمة ومسح البطولة ومحال الحب والرزاة ، والجري وراء العبث التافه والتمويه الكاذب والشروع التي جلبتها المدينة لإفساد المعوس وتلف العواطف .

هذا «الشاعر» الذي يبدو اليوم شعباً مائلاً ، ولوياً حائلاً ، وصوتاً حافتاً يتلاشى في صبحيج العصر ، إنما هو صورة ممتدة لصاحبه الذي ظل قروناً طويلة يسيطر على عواطف المجتمع المصري ، ويستهوى قلوب الناس ما يلقي عليهم من أفانين شعره ومجائبات سحره ، يجمعهم وبعرفهم ويهتاج من نفوسهم نوارع القوة والفتوة ، ويملاً أسماعهم بمماحر الأبطال ومآثر الأحواد ، ثم يعود من مبدول عظامهم وممحات جودهم بصمة الراح وغيمه الطافر .

ورث هذا « الشاعر » مكانة القاص الذي كان يعظ نقص الدين وأساطير الأولين ، ويذكر الناس بأناء آثامهم ومواقع تاريخهم ، وقد أخذ صوت ذلك القاص يتصاعد شيئاً فشيئاً ليخلى مكانه لذلك الشاعر الذي غزا المجتمع بنغم جديد وإشاد ملائم وتوقيع مستحسن وقصص مستحب للموسم التي كبتت فيها نوازع المطولة ، ورأت محدها يتخططه المعيرون من أوراغ الأمم ، فكأنهم بالإقبال على هذا « الشاعر » كانوا يشعرون النقص المركب في نومهم ، ويرصون شهوة مطموسة في ميولهم ، ولقد تمت المكانة لهذا « الشاعر » في السيطرة على عواطف المجتمع المصري بين القرن الخامس والقرن السادس للهجرة على ما أوصحناه في الفصل السابق ، وظلت هذه المكانة تطرد بهوداً وقوة على مر العهود النائرة التي اكتنفت الملاد من حراء الحروب الصليبية ومن حكم المماليك وسيطرة الأتراك وعرو العرسيين ، فكان المجتمع يعيش من أثر هذا كله محدود الأعصاب محدود الأسباب ، يحد فيما يقص ذلك الشاعر سلوة وراحته ، والتمرجع عما يعانيه في داخلية نفسه ، وما ينجم من ظلام الحوادث على عقله .

## مروق الشعراء والمحدثين فى المجتمع :

وقد عقد كلوت بك فى كتابه « لحة عامة إلى مصر » فصلا  
تحدث فيه عن قصة أبى زيد الهلالى وشغف المصريين بسماعها ،  
ثم وصف ما كان للشعراء والمحدثين بهذه القصة من المكانة فى  
المجتمع القاهرى أيام محمد على باشا فقال :

« ينقسم المحدثون إلى أقسام أو فرق تخصص كل فرقة منها برواية  
قصة واحدة ، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من  
الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين ، وأكثر  
تلك الفرق عدداً الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء ؛  
فقد احتسب هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة ،  
ويوجد فى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعراً من تلك الفرقة ،  
وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ،  
ثم الفرقة المحتكرة لقصة عترة العدى ويسمى رجالها بالعترية » .  
وبعد أن تحدث كلوت بك عن محاسن هؤلاء الشعراء  
والمحدثين وإقبال المصريين عليها ، ووصف مدى ما كان يعمل ذلك  
القصص فى نفوسهم ومبلغ استنارته لخواطهم ، عرض لوصف

الآلة الموسيقية التي كان أولئك الشعراء يوقعون عليها أنغامهم وأشعارهم أثناء رواية القصة فقال « إنها آلة موسيقية ذات وتر واحد ، وهي جديرة بالذكر إذ تخرج منها أنغام شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية » وهذه الآلة هي المعروفة بالربانة ، ولا يزال استعمالها دائعاً في مصر إلى هذا العهد ، وفي الريف لا يعضون عليها آلة موسيقية أخرى ، ولا يطنون لشيء مثل ما يطنون لصوتها الحماسي ، فإسها تثير فيهم الخوة والحمية فتجدهم لدى سماعهم لها يتصايحون بداءات الحماسة والمقوة .

### كيف حفت صوت الشاعر :

كان ذلك شأن شاعر الرابة في المجتمع المصري ، لا صوت أبدى من صوته ولا أثر أبلغ من أثره ، وتقدمت مصر في شوط المدنية ، ودرجت تأخذ بأسباب الحياة الحديثة أيام محمد على ثم أيام اسماعيل ، ولكن مكانة ذلك « الشاعر » ظلت على الرغم من هذا قائمة معتبرة ، وبقى سامره عامراً حاولاً مختلف الطوائف وكان يشارك في إحياء الحملات العامة والأفراح الكبيرة والليالي الساهرة . غير أن المجتمع القاهري أخذ في أواخر عهد

اسماعيل بتطور تطوراً سريعاً ، وبدأ يستقبل في اللهو والسمر ألواناً جديدة وفنوناً مستحدثة ؛ وكان للمهرجانات العظيمة التي أقامها إسماعيل احتمالاً لافتتاح الفناء وانهاجاً زفافاً أبحاله أكبر الأثرى ذلك ، إذا امتدت سهرات الغناء والرقص في مقاهى الأربكية وغير مقاهى الأربكية ، وتألقت فرق صغيرة لتمثيل الأدوار المضحكة والتقاليع المهرلية مثل فرقة كامل الأصيلى وفرقة مصطفى أمين ؛ وظهر كثير من المهرجين الكهين أمثال السيد قشطة وأحمد العار ، وكان أن قامت إلى جانب هذا كله دار الأوبرا التي أسسها إسماعيل للتمثيل ثم « التياترو » أو ما يسمونه « بالسرك » الذي يتنقل في أحياء القاهرة وفي مدن القطر الكبيرة ، ثم بدع طائفة من أشهر المغنين أصحاب الأصوات الرحيمة أمثال عمده الجوى وروجته المز والشيخ يوسف المنيلوى ومحمد عثمان وعبد الحى حلمى ، وكل هذه الألوان الجديدة التي ظهرت وشفق بها الناس استطاعت أن تتغلب على ذلك « الشاعر » وأن تسليخ عنه عشاقه وقصاده ، وهو يقف تجاه هذا كله يواصل عن مكانته ويدافع عن بضاعته ، ولكن مظاهر الندية الحديثة استمرت تتخطف عشاقه وقصاده ، وتمطر المجتمع كل يوم بمون

من اللهو والسر لا قبل لذلك الشاعر بها ، فأخذ يكشف ويتوارى ، وأخذ نم رباته يتضاد يوماً بعد يوم حتى صار إلى الحال التي نراه عليها اليوم .

### أثر القصة في المجتمع :

هذه هي قصة شاعر الرابة وما كان له من مكانة في المجتمع ، وسيطرة على النفوس دامت ثمانية قرون ، ظل طواها يحدث الناس وقائع القصة الهلالية ، ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ، ويقس من رغبات السامعين ويعيظ عليهم ، ونحن نعرف أن المحدث يحرص على أن يؤثر بمحدثه في المستمعين له ؛ وكثيراً ما يتمشى مع ميولهم في قبول الحديث وما يقع من المعاني موقع الرضا والبشاشة ، لهذا كان من الطبيعي أن يكون لهذا القصص أثر ظاهر في المجتمع من الناحية النفسية والخلقية والاجتماعية ، كما كان من الطبيعي أيضاً أن يكون للمجتمع أثر في تكوين ذلك القصص وعموه ، وهذا ما يراه الباحث واضحاً بمجرد النظر في ذلك القصص . يقول أحد الكتاب في مقال له «إن قصص بني هلال كان لها أسوأ الأثر في البلاد الإسلامية ، فما من واحد

من أهل تلك البلاد، بعد انتشار تلك القصص فيها — إلا ويريد أن يكون بطلاً كأبطالها، ولو كان أولئك قتلة وقطاع طرق وناهي أموال، فإذا أصبح واحد في تلك البلاد بطلاً فلا يكون همه إلا القتل ونهب أموال الناس كأولئك الأبطال الذين يتغنى شعراء الرباب بذكرهم، ولو بحث الآن في مصرنا لوجدت لصوصها وقطاع الطرق فيها من أولئك العتيان الذين يريدون أن يتحدث الناس عن بطولتهم كما يتحدثون عن بطولة أبي زيد الهلالي ودياب بن عامر .

فهل هذا صحيح؟ وهل هذا هو الأثر الذي كان لذلك القصص في نفوس الناس؟

إنه في الواقع حكم مشوش، وإسراف لا مبرر له، فقصص بني هلال لم تعلم الناس السلب والهيب، ولم يكن أثرها هو ذلك الأثر السيء الذي شمع به الكاتب. حقاً إنها أثرت في نفوس العامة بشيء من الشر، ولكنها كذلك أثرت بكثير من الخير الذي كسبت به الأخلاق والحياة الاجتماعية وخاصة في قرى الريف وبواديها .

حكى لي صديق من رجال القضاء أنه أدرك بالاستقراء والتثبت

أن تسعين في المائة من جرائم القتل التي تقع في الصعيد بدافع الغيرة وحماية العرض ، أو بباعث النخوة والعصبية إنما ترجع إلى ما يتأثر به الناس من سماع قصص أوى زيد الهلالي وحكايات الأبطال التي يديعها فيهم الشعراء .

وهذا صحيح ، فان قصة الهلالية ظلت درساً يلقي على الناس في الاعتداد بالنفس والثبات على الشجاعة، وحماية الجار والمستجير، والدفاع عن العرض والحريم ، والتعصب للأهل والعشيرة ، والمبادرة إلى مواجهة الخصم ، والأناة من الحصوص والخنوع ، وغير ذلك من المعاني والصفات التي ترددها القصة كثيراً ، وتصورها للناس في صور محتلمة مقبولة تهفو إليها العفوس والقلوب ، وقد يكون في هذا ما يجر إلى الشر، ويبلغ بالعفوس العتية إلى الطيش والرعونة والشطط في التصدى والانتقام مما قد لا تقره القوانين الموضوعية ، وإن كانت تقصى به التقاليد الموروثة .

على أن هناك من أثر هذه القصص في الخير ما لا يصح أن يمحذ أو ينكر ، فمن ذلك الحص على البذل والعطاء، وسماحة النفس ، وإقراء الصيف ، وإغاثة الملهوف ، ومواجهة الشدائد، والصبر على الجهد ، إلى آخر ما تجده شائعاً في القصة ، وتجده العامة يحفظون



فيه الحكم والأمثال ، ويرددون له الشواهد مما جاء على لسان  
ابطال القصة ، فأنت إذا أخذت في الحديث مع أحد إنناء  
الريف فإنه لا يلبث أن يستشهد لك في كل ما يقرره بما يحكى  
عن أنى زيد وما يروى عن دياب ، وما وقع للزمناتى .

وهناك ناحية أهم في الأثر والتأثير ، ذلك أن المجتمع الإسلامى  
بعد أن ربكته الحروب الصليبية المعروفة خضع لمقدور الحياة ،  
وخنع لما تجرى به الأيام ، واستكان لما تجلبه عليه الحوادث ،  
وضعت روح الأقدام والشجاعة التى كان يزيكها فى النفوس  
إعداد الجيوش واقتحام الحروب ، فكان ترديد ذلك القصص  
فى المجتمع مما حفظ هذه الروح سليمة قوية فى نفوس القوم ، بل  
زادتها تزكية وإثارة ، وقد حكى لى رجل من المعمرين فى قريتنا  
كان جنديا فى حملات إسماعيل باشا فى السودان والحشة أن قصة  
أنى زيد الهلالي كانت حديث سمرهم ، وأن فائدهم كان يختار لهم  
من يسرد عليهم مواقع هذه القصة ، ويكافئ الدين يحسنون  
سردها من الجنود .

فليس من شك فى أن القصة الهلالية قد أثرت فى المجتمع  
الذى تداولها تأثيراً كبيراً فى المواحى التهذيبية والخلقية والاجتماعية

وليس من شك في أنها كانت درساً أخذته الناس بالوعى والفهم،  
وآثروه في حياتهم وسلوكهم، على عكس ما أخذوه عن قصة الف  
ليلة وليلة وما فيها من تهاويل الغرام والمجون ، ولن يدرك هذا كله  
إلا من خالط المجموع في مجالس الشاعر وهم يصيخون له، ورأى ذلك  
الشاعر وهو يتلاعب بعواطفهم ويستبد بأعصابهم .

## الفصل الخامس

### أدب الهلاليين وشعرهم

نقصد في هذا الفصل إلى الكلام على أدب الهلاليين وشعرهم ، وإلى تناول القصة الهلالية من الناحية الأدبية ، وما لها من القيمة في ذلك ، وليس من شك في أن شعر الهلاليين نمط من الشعر العربي له لونه الخاص ، ومميزات الفريدة ؛ وهو هذا آخرى بأن يدرس على حدة ، وأن ينظر إليه الباحث على أنه ناحية من نواحي التطور التي انتهى إليها الشعر العربي فيما بعد ، مثل الموشحات والأزجال والقوما والدوبيت ؛ ولكن أحداً من الباحثين لم يهتم بذلك اللون الشعري الطريف كما اهتموا بذلك الألوان الأخرى ، ولقد تورع العلماء عن روايته وترفوا عن الاهتمام به نظراً لما فيه من اللحن والخروج على قواعد الإعراب ، كأنه في تقديرهم يبرل عن مرتبة الزجل الذي ينظم بالعامية الخالصة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أولوه بعض العناية ، وتظرفوا بروايته والعناء به ، وكما كان ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذي اهتم بتاريخ بني هلال وسليم وقصصهم ، فقد كان أيضاً

هو الباحث الوحيد الذي أكبر أدهم وتحدث عن شعرهم ، ونعى على العلماء ترمتهم في إهماله والإصراف عنه .

لم يدون ذلك الشعر ، ولم يصلنا بالرواية الصحيحة ، إلا ما تشتمل عليه القصة من الأشعار ، والقصة قد دخلها كثير من الانتحال والتلميق على ما رأيت من قبل ، فلا يستطيع الباحث مهما كد ذهنه وأمعن في التنقيب أن يقع على الأصول الصحيحة والأشعار الحقيقية للأقوم ، ولكنه على الرغم من ذلك لا يعجز وهو بسبيل الدراسة لهذا الشعر عن أن يقف على خصائصه الفنية فيما يعرف من اعته وأسلوبه وعرصه ، إلى آخر المطاهر التي تتجلى في النصوص القليلة التي رواها ابن خلدون من هذا الشعر ، وفي المادج التي حفظتها القصة أو حيكت على مثاله على الأقل ، وهذا ما يريد أن يعرض له في هذا الفصل .

### رأى ابن خلدون :

عنى ابن خلدون بالحديث عن شعر الملاليين وقصصهم في غير موضع من تاريخه ، فقال وهو يتكلم عن تطور الشعر العربي وتنوع فنونه وأساليبه في العصور المتأخرة :

« فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجبون عن لغة سلمهم من مصر ، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلمهم المستعربون ، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي ، وربما يلحنون فيه أحياناً سيطرة لأعلى طريقة الصاعقة الموسيقية ، ثم يغنون به ، ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ، وهي من ممالك العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد ، ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أحرار يحالف أحرار الثلاثة في رويته ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة تشبيهاً بالمرجع والخمسة الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ، ول هؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة

وفيه العحول والمتأخرون ، وكثير من المتحايين لهذا العهد  
وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه العنون التي لهم إذا سمعها ،  
ويمج نظمهم إذا أشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجاها  
وفقدان الإعراب منها ، وهذا إنما يأتي من فقدان الملكة في  
لعاتهم ، فلو حصل ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه  
ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره ، وإلا  
فالإعراب لمدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام  
المقصود لمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا  
على الفاعل والمصوب دالا على المفعول أو بالعكس . وإنما يدل  
على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب  
ما يصطلح أهل المكة ، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر  
صحت الدلالة ، وإذا طاعت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال  
صحت البلاغة ، ولا عرة بقوانين النحاة في ذلك ، وأساليب  
الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب  
في أواخر الكلام ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتم - عنهم  
الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا  
بحركات الإعراب .. »

ثم عاد ابن خلدون يتحدث عن شعر الهلاليين وأدبهم مرة أخرى في الجزء السادس من تاريخه وهو بسبيل الكلام عن أنسابهم وتاريخهم فقال :

« ويروون كثيراً من أشعارهم محكمة المأني متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمتجمل والمصنوع ، لم يقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما تخلو من الأعراب فقط ، ولا مدخل له في البلاغة كما قررنا ذلك في الكتاب الأول من كتاسا هذا ، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ، ويستكفون منها ، لما فيها من خلل الإعراب ، ويحسون أن الإعراب هو أصل البلاغة ، وليس كذلك »

« وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصعنة ، وفقدت فيه صحة الرواية ، فلذلك لا يوثق به ، ولو سححت روايته لكانت فيه شواهد بأناهم ووقائهم مع زناته وحروبهم ، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، ولكننا لا تثق روايتها ، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع فيها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه .. »

فالشعر الهلالي كما يرى ابن خلدون ، نمط من الشعر العربي في أسلوبه وأغراضه ، ونهجه ومذاهبه ، لم يخرج به القوم في شيء

إلا أنهم كانوا ينظمونه بلفتهم الملحونه ، ولا يتمسكون في أدائه  
بقواعد الإعراب وحركاته في أواخر الكلم ، وهذا هو الذي جعل  
علماء العربية يهملون روايته و يترفعون عن النظر فيه على الرغم  
مما يتجلى فيه من اتفاق الأطراف وإحكام المائى ، وعلى الرغم  
من أن الإعراب لا مدخل له في مقياس البلاغة وتحققها كما يقول  
ابن حلدون .

#### الإعراب وصاته بالبلاغة :

وهذا رأى الذى يبديه ابن حلدون في الصلة بين الإعراب  
والبلاغة ، رأى فيه بعض الحق ، وفيه أيضاً بعض الباطل ، فلا  
ستطيع أن نقوله من ابن حلدون على علته ، وإيه الجدير بالنظر  
والمناقشة .

حقاً إن الإعراب لا مدخل له في البلاغة إذا اعتبرها البلاغة  
معنى فياً يشيع في كل لغة ، ويتحقق في كل لهجة ، فليس من  
شك في أن في اللغة العامية وفي معارصها الهندية من الزحل  
والأعاني الدارجة والأماشيد الشعبية ، وفي اللغات الأجنبية بلاغة ،



وبلاغة فائقة ، وهى لا تتقيد بقواعد الإعراب ، بل قد يكون استعمال الإعراب فيها مما يفسدها ، ومع هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر ما فيها من مظاهر الروعة انسية ، وإلى هنا فنحن على اتفاق مع ابن خلدون فى رأيه .

ولكننا إذ ننظر إلى البلاغة فى دائرة اللغة العربية خاصة ، فإننا لا نستطيع أن نوافق على أن « الإعراب لا مدخل له فى البلاغة » ، لأن مظاهر البلاغة فى أية لغة إنما تستمد عناصرها من خصائص هذه اللغة ومميزات ، والإعراب من أهم الخصائص التى تتميز بها العربية ، فالعلماء لم يسرفوا ولم يتمكبوا الصواب إذ جعلوه شرطاً أساسياً أولياً فى بلاغة الكلام العربى ، وأغلب الطن أنهم حينما أنكروا الشعر الهلالي لعدم تقيده بقواعد الإعراب إنما أنكروا حسابه أن يكون من كلام العرب الصريح ، وأسلوهم الصحيح ، وإن كانوا أسرفوا فى هذا الإنكار ، وترتموا عاية التزمت ، حتى حملهم هذا على إهال ذلك الشعر كل الإهمال ، وأعملوا ما فيه من مظاهر البلاغة لأنه فقد صفة واحدة هى التقيد بقواعد الإعراب .

### خصائص الشعر الهلالي :

وإذن فلننظر إلى الشعر الهلالي على هذا الاعتبار طليقاً من قيود الإعراب والتزاماته، وإبه لجدير بالنظر، وإن الباحث ليلمس فيه كثيراً من الخصائص الفنية والمظاهر الرائعة الطريفة التي تحببه إلى النفوس ، وتتجاوب به مع عواطف القارئ في كثير من الأحيان .

ولعل أول ما يلفت النظر من خصائص هذا الشعر هو ما فيه من صدق العاطفة وقوة الإحساس وسذاجة التصوير، وهذا شيء طبيعي ، لأنه شعر البداوة والفطرة السمحة والانفعال المسماني الذي يعيض به التعبير في وضوح وصراحة، وإبها لصمة تتجلى في سائر الاتجاهات التي راءها هذا الشعر من العزل والسيب والشكوى والحنين والسلوى والتأسي والمعر والمارة والغضب والإثارة ، إلى آخر تلك المنون والأغراض ، فلسنا بعدو الحق إذا سميناه شعر العاطفة ، لأن القوم لم يتجاوزوا بأغراضه حدود الانفعال النمسي وما يشغل عواطفهم ومشاعرهم من شئون الحياة . وهناك صفة أخرى لا تقل عن تلك الصفة وضوحاً في هذا

الشعر، وهى الانسجام الموسيقى والمرونة التى تطاوع الصوت بشتى ألوان التنعيم والتطريب ، وهذه الميزة هى التى طوعت لشعراء الرابة أن يتعنوا بجميع ألوان هذا الشعر وأن يوقعوه على الرابة نغما منسجماً ولحناً شجياً يهز القلوب ، ويبدو لنا أن هذه الميزة قد تحققت لهذا الشعر من خلوصه من قيود الإعراب واعتماد قائله فى نظمه على التلحين الموسيقى والترجيع الغنائى ، لأن حركات الإعراب فى أواخر الكلم كثيراً ما تقيد حركات اللحن وتصيق دائرة المرونة لامتداد الصوت وانتقالاته ، وتقف ثقيلة فى الملائمة بين قرار النغم وجواه وما يسميه أهل الفن بحركة الربط فى العمم الموسيقى .

وثمة صفة ثالثة تتجلى أمام الباحث فى هذا الشعر وهى قوة الروح الدينية ، فكثيراً ما يرد فيه ذكر الموت والحشر والحساب والعقاب وخوف الآخرة والاستسلام للمقادير والتهوىض لله ، ومن تقاليدهم الظاهرة فى هذا ابتداء القصائد بالصلاة على النبى وقد يختتمونها بذلك ؛ والظاهر أن القصاص والوضاعين قد بالغوا فى تصوير هذه الناحية وإبرازها ، فكانوا يعتمدون هذا التقليد فى كل ما ينتحلونه من الشعر فى القصة نظراً لما لهذا الاتجاه الدينى

من قوة التأثير على نفوس العامة والوصول إلى قلوب السامعين .  
 وإلى جانب هذه الخصائص في الشعر الهلالي ، يلاحظ  
 الباحث بعض الخصائص الأخرى في أسلوبه وطريقة التأدية فيه ،  
 فمن ذلك ما يحرص عليه الشاعر في أغلب الأحيان من التصريح  
 باسمه في أول القصيد، والهجوم على الغرض في غير مقدمة ولا  
 تطويل ، وإيثار بعض التعابير يكررونها كثيراً في أشعارهم ، وقد  
 يكررونها في القصيدة الواحدة عدة مرات .

### القصة من الناحية الأدبية :

بقيت كلمة أخيرة عن القصة من الناحية الأدبية ، ونعى القصة  
 بوصفها الدائع الشائع وما فيها من شعر مطبوع ومصنوع  
 وحقائق وحيالات ووقائع ومساعات ، وعاية ما يصنعها الباحث في  
 هذا أنها قصة شعبية استوفت عناصرها على هذا التقدير ، وحات  
 كل صروب الرعاية في ملاءمة عقلية المجاهدين واستمرار عواطف  
 الجموع الشعبية ، ومن أجل هذا ظلت القصة حية في ينات الشعب  
 تلك الآماد الطويلة ، وستظل كذلك إلى آماد طويلة .

وأسلوب القصة مختلف ، نعى أنه متباير في طبقات القصة

الكثيرة، ولكنه يتمق في أصول ثائرة ويجرى على أوضاع متعقّة  
تجعلنا نحكم عليه حكماً متعقّاً ، فهو أسلوب نارع في الحكاية ، سهل  
العارة ، يكثر فيه السجع والربن الموسيقى ، ويأخذ بالأوصاف  
الحسية والتشبيهات الملموسة ، وكثيراً ما تتوارد فيه بعض التعابير  
والأوصاف ، فلا تتغير ولا تبدل في كل واقعة ، وتنع فيه كلمة  
« قال الراوى » بين كل واقعة وواقعة كأنها استراحة لذهن  
السامع ، وكأنها أيضاً تنبيه له على الإنصات والمتابعة ، وإستعمال  
كلمة « قال الراوى » على هذا الوضع وهذا الترتيب من خصائص  
القصة الهلالية لم يستعمله القصاص والرواة من قبل ، وكأنهم  
أرادوا بهذا أن يقابلوا الوضع المألوف عند المؤلفين من العرب في  
إيثار العنونة في الرواية وإسناد القول إلى فائله

\*\*\*

وأما بعد ، فالى هنا أقف بالقارىء ، ولعلنى أن أكون قد  
وفيت المبحث عن هذه الماحية من تراثنا الشعبي في حدود ذلك  
الوضع الصيق ، والله ولى التوفيق والسداد ، ومنه العون والرشاد .

